الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بين القيام والضعف والسقوط

الحضارة الإسلامية

عاش رسول الله ﷺ محمد بن عبدالله في المدة من (٥٧٠-٦٣٢م) في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبعد بعثته ﷺ استمر ثلاثة عشر عامًا في مكة يدعو الناس إلى الإسلام، وكان يتحمل الأذى ولم يقبل دعوته سوى نفر قليل، وكانت هجرته إلى المدينة المنورة نقطة انطلاق الحضارة الإسلامية، فقد حارب مكة بعد نقض حلفهم حين ساعدوا بكرًا على قتل مسلمي خزاعة التي دخلت في عهد رسول الله ﷺ مع قريش في صلح الحديبية، بينما دخلت بكر في عهد قريش، فقتلت بكر مسلمي خزاعة في الحرم، لذلك سار رسول الله إلى مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفتحها عام (٦٣٠م)[١]، وحين انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى عام (٦٣٢م) كانت الدولة الإسلامية تسيطر على أنحاء شبه الجزيرة العربية جميعها تقريبًا[٢].

وقد مرت الدولة الإسلامية بالعديد من الحروب التي كان لها أبلغ الأثر في انتشار الحضارة الإسلامية، بداية من حروب المرتدين في عهد الخليفة الراشد أبي بكر

---

(١) مسلماني، مالك: **ميلاد الدولة الإسلامية**، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - سوريا، ٢٠٠١م، (ص١٩-٢٠).

(٢) المطيري، حزام ماطر: **الإدارة الإسلامية المنهج والممارسة**، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٩٩٧م، (ص١٢٥).

الصديق ﷺ عام (٦٣٣م) ونهاية بفتح القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح في عام (١٤٥٣م)[١].

سنن قيام الحضارة الإسلامية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

ارتكزت الحضارة الإسلامية على تكوين دولة قوية موحدة شأنها في ذلك شأن غالبية الحضارات، ولكنها اختلفت عن بقية الحضارات في قيامها على أساس التوحيد، أي الأساس الديني الذي جعل العقيدة الإسلامية بقيمها الروحية والمادية هي الأساس الثابت الذي أسهم في انتشار الحضارة الإسلامية الرائعة، وتوغلها في الشرق والغرب على حساب الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية؛ اللتين فاقتاها في العدد والعدة، ولكن القوة الإيمانية والقوى الروحية الذي غرسها رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين زادتهم قوة وإيمانًا، وجعلتهم أكثر قدرة على التصدي لهذه القوى والتغلب عليها، وتكوين إمبراطورية إسلامية في الشرق والغرب.

أ. العوامل السياسية

اقترنت الحضارة الإسلامية في نشأتها وتطورها بالتعاليم الدينية والدعوة إلى التوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكذلك ارتكاز الإسلام على أركان مهمة تتضمن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة كعنصر فاعل في محاربة الفقر وما يترتب عليه من مشكلات، والتضامن والتكافل الإسلامي، وكذلك صوم رمضان للشعور بحاجة الفقراء للطعام والتضامن معهم في رد الفاقة عنهم، فالدين الإسلامي قام على التسامح والإخاء والعدالة والمساواة، وهي معايير أخلاقية ودينية سعى الإسلام

---

(١) الحقيقة أن فتح القسطنطينية لم يكن نهاية الفتوحات، بل فتحت بعدها بلاد الأرناؤوط والبغدان (إمارة مولدافيا)، وواصل محمد الفاتح تقدمه حتى وصل إلى أسوار فيينا. انظر: جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، (ص١٤٠).

لتحقيقها عن طريق العمل على تحقيق العيش الكريم والحرية والعدالة الاجتماعية التي نادت بها التوجهات الفكرية المعاصرة في ثورات الربيع العربي في العصر الحديث.

وهناك قواعد أربع للنظام السياسي في الإسلام أسهمت بصورة كبيرة في انتشار الحضارة الإسلامية وازدهارها:

- القاعدة الأولى: قاعدة الشورى، عن طريق الرجوع إلى أهل الاختصاص في الأمور التي لا يوجد فيها نص شرعي واضح للوصول إلى الأصلح للأمة والأنفع لها.
- القاعدة الثانية: قاعدة العدل، بإعطاء كل ذي حق حقه من دون نقص أو تعدٍ، والإنصاف في المعاملة من غير إفراط ولا تفريط.
- القاعدة الثالثة: قاعدة المساواة، وذلك بعدم التفرقة بين الناس في الحقوق والواجبات على أساس عرقي أو قبلي أو إقليمي أو طبقي أو اقتصادي.
- القاعدة الرابعة: هي قاعدة الحرية، عن طريق الإذن للإنسان التصرف في شؤونه كلها بما لا يخالف الشريعة الإسلامية، وبما لا يوقع الضرر على الآخرين[١]، حيث يرفض الإسلام التمييز بين الناس بناء على الجنس أو اللون أو العرق، ولا يقر أي تمييز بينهم بسبب العقيدة أو الدين، ويأمر بتطبيق مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق السياسية والمدنية المتعلقة بعصمة النفس والمال وإدارة الشؤون الخاصة والأحوال الشخصية[٢].

---

(١) النمر، سعود بن محمد وآخرون: **الإدارة العامة: الأسس والوظائف والاتجاهات الحديثة**، مطابع الحميضي، الرياض، ط٧، ٢٠١١م، (ص١٥٤-١٥٧).

(٢) القمودي، سالم: **قيام الحكم الإسلامي من الحق المجرد إلى الإلزام الديموقراطي**، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١١م، (ص١١١).

بناء على ما سبق فقد أسهمت عوامل سياسية في ازدهار الحضارة الإسلامية، أهمها[١]:

١. حروب الردة عام (٦٣٣م) التي أزالت الشك نحو قدرة الحضارة الإسلامية الناشئة على التغلب على الصعاب التي تواجهها عن طريق القضاء على ثورات المرتدين وتمرداتهم.

٢. انتزاع العرب من الإمبراطورية البيزنطية (الإمبراطورية الرومانية الشرقية) سورية والجزيرة الفراتية وفلسطين ومصر عام (٦٤١م).

٣. فتح العرب العراق عام (٦٣٧م) وإيران بأكملها حتى مرو عام (٦٥١م)، واستسلام الأرمن وسكان جورجيا من أتباع البيزنطيين عام (٦٥٣م) للمسلمين.

٤. إنشاء معاوية ﷺ أسطولًا في عام (٦٦٩ م)، فحاصر القسطنطينية برًا وبحرًا في المدة من (٦٧٤-٦٧٨ م). ولكنه فشل في احتلالها، وعاود العرب فحاصروا القسطنطينية مرة أخرى في المدة من (٧١٧-٧١٨ م) ولكنهم فشلوا أيضًا في احتلالها.

٥. انتزاع العرب شمال غرب إفريقية من البيزنطيين بين سنتي (٦٤٧ و٦٩٨ م).

٦. فتح العرب طخارستان (شمال غرب أفغانستان) بين سنتي (٦٦١ و٦٧١ م)، فتمكنوا من السيطرة على الطريق البري الواصل بين الهند والصين عبر حوض نهري سيحون وجيحون.

---

(١) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٤٥٧-٤٦٧)؛ الحسن، عيسى: **الدولة الأموية عوامل البناء وأسباب الانهيار**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٩م، (ص٢٦٨-٢٧١)؛ جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، (ص١٤٠)؛ لوبون، غوستاف: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠١١م، (ص١٤٢).

٧. اجتياز العرب البحر إلى شبه جزيرة إيبيريا في المدة من (٧١٠-٧١٢ م)، فقضوا على مملكة القوط الغربيين واحتلوا أملاكها.

٨. فتح العرب حوض السند ومنطقة البنجاب الجنوبية بما في ذلك الملتان في عام (٧١١ م)[١].

٩. كان أول نزول للدولة الأموية حاملةً لواء الدعوة الإسلامية في أرض الأندلس بشبه جزيرة إيبيريا (أسبانيا والبرتغال)، فكان أول انتصار للمسلمين هناك عام (٩٢ هـ، ٧١١ م) في معركة وادي البرباط، لتبدأ مسيرة الغزوات الإسلامية في جنوب إيطاليا وصقلية. وبلغت الدعوة الإسلامية إلى برنديزي والبندقية بإيطاليا على البحر الأدرياتيكي. وخضعت جزر البحر الأبيض المتوسط كلها من إقريطش شرقًا حتى قورشقة غربًا للحكم الإسلامي.

١٠. اجتياز بني أمية مضيق جبل طارق في عام (٧١٢ م)، فدخلوا إسبانيا، ونجحوا في نزعها من مملكة القوط النصرانية، وأقاموا فيها مملكة خضعت لسلطان المسلمين نحو ثمانية قرون.

١١. فتح العرب بلاد ما وراء النهر في السنوات (٧٣٩-٧٤١ م)، وهي بلاد أوزبكستان، والجزء الجنوبي الغربي من كازاخستان بأكملها.

١٢. استطاع عبدالرحمن الداخل (صقر قريش) إقامة خلافة أموية بالأندلس استمرت في المدة من (٧٥٦-١٠٣١م) وكانت عاصمتها قرطبة التي شيدها

---

(١) مدينة باكستانية تقع في الجزء الجنوبي من محافظة البنجاب، وهي عاصمة منطقة ملتان. يفوق عدد سكانها (٣,١) مليون نسمة، ما يجعلها سادس أكبر مدن باكستان. تقع المدينة شرق نهر تشناب وتبعد عن كراتشي بقرابة (٩٦٦) كلم. المدينة مليئة بالأسواق والجوامع والأضرحة والقبور المصممة بصورة مميزة. كما توجد فيها شبكة سكك حديدية. مساحة المدينة (٣٧٢١) كم^{٢}. وما تزال باسمها الحالي حتى وقتنا هذا. انظر: عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٣٤).

الأمويون على غرار عاصمتهم دمشق. وكانت أكبر مدينة في أوروبا، فحكموا الأندلس زهاء قرنين.

١٣. في عام (١٤٥٣م) فتح العثمانيون القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

أما التنظيمات السياسية التي حكمت الدولة الإسلامية وأسهمت في ازدهار حضارتها فقد أخذت شكلًا هرميًّا، حيث يأتي الخليفة أو الإمام في مقدمة الهرم التنظيمي، فوزير التفويض، ثم وزير التنفيذ، فأمراء الأقاليم والأمصار، فأمير الجيوش، فالقاضي والمحتسب؛ فالخليفة بمفرده لا يمكنه حراسة الدين والدولة وسياسة الدنيا بمفرده، ولهذا وجب التفويض، ووجبت الاستنابة لإمكان تدبير شؤون الدولة وأقاليمها والدفاع عن حدودها، فسياسة الوزير المشارك في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من التفرد بالتدبير، وبذلك يتحقق البعد عن الزلل ومنع الخلل[١].

وبالرغم من الهيكل التنظيمي الهرمي الذي استدعي السيطرة على الدولة الإسلامية الناشئة ومنع تفككها، إلا أن العمل بمبدأ المركزية وتفويض السلطة كان هو السائد والذي أسهم في الاستفادة من إبداعات الولاة والخلفاء والقادة والإداريين المسلمين وابتكاراتهم، وانعكس على التطور الحضاري وازدهار الحضارة الإسلامية، حيث أكد الإسلام على العمل بمبدأ الشورى، وعمل به الرسول ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، وهناك العديد من النصوص القرآنية التي تحث القائد والمدير المسلم على أن يجعل الشورى نصب عينيه[٢]، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ

(١) الماوردي، أبو الحسن: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٩٦م، (ص٢٢).

(٢) الضحيان، عبدالرحمن بن إبراهيم: **الإدارة والحكم في الإسلام**: الفكر والتطبيق، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط٣، ١٩٩١م، (ص١٥٢).

فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والشورى من الأركان الأساسية التي يرتكز عليها نظام الحكم في الدولة الإسلامية، فيجب على القائد أن يشاور أفراد مجموعته في القرارات التي يتخذها قبل تطبيقها، شرط ألا يكون هناك نص قرآني قاطع أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يفصلها ويحكم فيها(١).

ومن هذا المنطلق يجب ألا ينفرد القائد أو المدير باتخاذ القرار، وكذلك لا يترك الجماعة تتخذ القرار بنفسها، ولكن يجب عليه أن يتشاور مع الجماعة للاستفادة بآرائهم قبل تنفيذ القرار المتخذ، وفي المقابل يجب على أفراد الجماعة الأمانة والإخلاص في إبداء الرأي(٢). ولذلك فالأخذ بمبدأ الشورى إلزام وفريضة على كل قائد ومدير مسلم، وهي ظاهرة صحيحة ذات مردود إيجابي على القائد والمدير والعملية القيادية والإدارية بأكملها، والرسول ﷺ شاور أصحابه واستمع إلى آرائهم وقبل المفيد منها، ففي غزوة بدر أخذ برأي الحباب بن المنذر الذي أشار على رسول الله ﷺ بالنزول بالقرب من الماء وبناء حوض عليه، حتى يتيسر للمسلمين الشرب، بينما يتعذر ذلك على الكافرين(٣)، كما كان رسول الله ﷺ يعمل دائمًا على إيجاد بيئة نفسية صحية تدعم المناخ النفسي للشورى وتحفز أفراد الجماعة على الإدلاء بأفكارهم وآرائهم(٤).

---

(١) المطيري: **الإدارة الإسلامية المنهج والممارسة**، (ص٢٤١).

(٢) العييري، سليمان بن إبراهيم: **الخلق الإداري في الإسلام**، وكالة أريج للدعاية، بريدة - المملكة العربية السعودية، ١٩٩٨م، (ص٤٢).

(٣) مرسي، سيد عبدالحميد: **مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية**، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، د.ت، (ص٧٧).

(٤) فضل الله، فضل الله علي: **القيادة الإدارية في الإسلام**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٧م، (ص٢٠٦).

أما العدل فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ويقول النبي ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»[(١)].

والعدل مظهر من مظاهر الإسلام، ومبدأ تشريعي هامّ مارسه النبي ﷺ يوم سرقت امرأة من بني مخزوم وجيء بها إليه لتعاقب، فأهمّ ذلك قريشًا وقالوا: من يشفع لنا عند رسول الله ﷺ في إسقاط الحدّ عنها؟ ثم ذكروا أن أسامة بن زيد حبيب إلى قلب الرسول ﷺ فكلموه في أن يشفع لها عنده، فكلمه بذلك فغضب (عليه الصلاة والسلام) غضبًا شديدًا وقال لأسامة: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» ثم قام في الناس خطيبًا فقال: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[(٢)].

وكان عمر بن الخطاب مثال الخليفة الغيور على الشعب، البار بالضعفاء، الشديد في الحق، الناس عنده سواء، بل يحرم نفسه ليعطي الناس، ويجوع ليشبعوا، وكان يتفقد الناس في بيوتهم ومنازلهم، وقصصه في ذلك مشهورة معروفة.

أما المساواة فمبدأ أعلنه القرآن الكريم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. إذن لا فرق بين عرق وعرق، ولا بين لون ولون، ولا بين ناطق بلغة وناطق بلغة أخرى،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث رقم ٦٢٩، (ج١-ص٢٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، حيث رقم ٦٤٠٦، (ج١-ص١٢٩)

لمجرد اختلاف الأعراق أو الألوان أو اللغات. والناس كلهم متساوون في أصل الإنسانية. وفي التاريخ لأول مرة يشكو والد مغلوب الحاكم الغالب إلى رئيس الدولة الأعلى من أن ولد الحاكم قد ضرب ولده الصغير خفقتين بالسوط على رأسه من غير حق، ويغضب رئيس الدولة الأعلى ويحاسب ولد الحاكم، ويقتص منه ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[١]. وكان رئيس الدولة يومها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ وكان الحاكم عمرو بن العاص ﷺ.

أما الحرية، فقد قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وجاءت التعاليم الإسلامية تشرّع لحرية الرأي لا على أساس أنها حق مباح من حقوق المسلم فحسب، ولكن على أساس أنها واجب عليه أيضًا. ولكثرة ما جاء فيها من طلب مشدّد يمكن عدها أنها ترتقي في سلّم المقاصد الشرعية إلى درجة الضرورة، فهي مقصد ضروري من مقاصد الشريعة[٢]. والدليل على ذلك التأويل المتحرر في القرآن في العهود الإسلامية الأولى، أن المسلمين حين فتحوا الشام وفارس مصر وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب، لم يفرضوا معتقداتهم الدينية على الشعوب الخاضعة منذ مدة قريبة لسلطتهم، فاحترموا معتقداتها ولم يفرضوا عليها إلا الجزية[٣]. وقد جسّد هذه المفاهيم الخليفة أبو بكر الصديق، والخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، فقد قال الصديق في خطبته بعدما تولى الخلافة: «أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت

---

(١) الذهبي، شمس الدين محمد: **سير أعلام النبلاء ـ سير الخلفاء الراشدين**، تحقيق وضبط وتعليق بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، (ص٧٦).

(٢) النجار، عبدالمجيد، **دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠٠٥م، ط٢، (ص٤٥).

(٣) الثعالبي عبدالعزيز، **روح التحرر في القرآن**، نقله من الفرنسية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ط١، (ص٩٩).

الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم...»[١]. وعن خطبة عمر بن الخطاب في الحكم قال: «... فاتقوا الله عباد الله! وأعينوني على أنفسكم بكفّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم...»[٢].

ويمكن تلخيص أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الإسلامية بما يأتي:

١. التوسع والفتوحات المستمرة التي أخضعت أقاليم كثيرة للدولة الإسلامية.

٢. ارتكاز نظام الحكم في الإسلام على الشورى والعدل والمساواة والحرية دون مخالفة الشريعة أو إيقاع الضرر بالآخرين.

٣. الإدارة الحكومية الناجحة، التي ارتكزت على مزيج من المركزية واللامركزية، واعتمدت بصورة رئيسة على تفويض السلطة والشورى والمشاركة في اتخاذ القرارات.

٤. الجانب الديني الروحي الذي ارتكزت عليه السياسة في الإسلام، والرغبة في إعلاء كلمة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ونشرها، والعمل وفق شعار النصر أو الشهادة.

٥. إتقان العرب استخدام السلاح، فقد قال عنهم أمراء الرومان وقادتهم بأنهم يقاتلون بمهارة الجن وخفة النمر.

---

(١) الأندلسي، ابن عبدربه: **العقد الفريد**، بيروت، مؤسسة الرسالة، (ج٤-ص٥٦)؛ الطنطاوي، علي، **أبو بكر الصديق**، دار المنارة، جده، ٢٠٠٦م، ط٦، (ص٣٦٨).

(٢) رواه ابن سعد في **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، محمد: **الطبقات الكبرى**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٢م، (ج٣-ص٢٧٥)؛ وانظر: الطنطاوي، علي، **أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر**، دار المنارة، جدة، ٢٠٠٧م، (ص١٤)، (ص٧٥).

٦. إنشاء تنظيمات إدارية متميزة لتنفيذ أعمال الدولة ومهامها، وتنظيم العمل في البلاد المفتوحة.

٧. احترام أصحاب الديانات الأخرى، وعدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام، بشرط دفع الجزية على أن توفر الدولة الإسلامية له ولذويه الحماية الكاملة.

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمد المجتمع الإسلامي أساسًا في المدينة المنورة على الزراعة، أما في مكة فقد اعتمدوا على التجارة، واستغلوا موسم الحج في رواج تجارتهم وحققوا أرباحًا وفيرة عن طريق رحلتي الشتاء والصيف، فقد كانوا يجلبون البضائع من اليمن والشام والبلاد الأخرى خارج الجزيرة العربية كالصين ونحوها، بينما تميزوا في صناعة التمور وتصديرها، وكذلك البخور والعطور، فقد كانت البيئة الصحراوية فقيرة المعطيات.

وكانت التجارة عصب الحياة الاقتصادية قبل الإسلام وبعده، لأن العرب كانوا يكرهون الزراعة ويزدرون العمل بها، وكانوا يتركون الصناعة للأرقاء، وقد سخروا حرفتي الرعي والصناعة لخدمة الزراعة والتجارة لتحضير البخور وحب البان[١] الذي يحمل إلى سائر البلدان، وكان عرب الحجاز يخرجون للتجارة قاصدين ما جاورهم من بلاد العالم المتمدن، لذلك ذكر القرآن الكريم رحلات أهل مكة (رحلة الشتاء والصيف)، حيث كانوا يخرجون بقوافل كبيرة تتعدى الألف بعير[٢].

---

(١) حب البان: هو لبان الذكر الذي كان يخلط مع البخور لعمل تركيبة ذات رائحة طيبة. وهو ضرب من صمغ الشجر اللبان يمضغ ويستخد بخورًا أحيانًا، وكذلك له استخدامات عديدة في وصفات الطب الشعبي. للبان أنواع عديدة يستخرج مرتين أو ثلاثًا سنويًّا من شجرة اللبان أو اللبنى، وأجود أنواع اللبان عالميًّا تستخرج من أشجار اللبان من عمان حيث يعرف هذا اللبان باسم اللبان العماني. انظر: العماني، محمود: **مواد البخور الطبيعية**، دار النفائس، عمَّان، ٢٠٠٥م، (ص٨).

(٢) شحادة، نزيه: **صفحات من الحضارة الإسلامية**، بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠٦م، (ص٢٦).

وقد تميزت الحضارة الإسلامية بأن التجار العرب المسلمين قد أسهموا بصورة مباشرة في انتشار الدين الإسلامي، فقد كانوا ينظمون الأسواق في البلدان المفتوحة، ويوقفون العمل وقت الصلاة، ويتعاملون بالشرف والأمانة حسب تعليمات الدين الإسلامي، ويبتعدون عن الغش والربا، ما جعلهم قدوة، وجعل كثيرًا من أهل تلك البلاد الذين ظلوا على دينهم وكانوا يدفعون الجزية يتحولون إلى الدين الإسلامي لما عهدوا من حسن خلق التجار ووفائهم بعهدهم، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي أوصى بها الإسلام[١].

وقد ازدهرت التجارة بصورة كبيرة مع توسع الخلافة الإسلامية، واستخدم العرب الطرق البرية والبحرية في نقل البضائع من البلدان المفتوحة وإليها، وأسهم الأسطول الإسلامي في تطور الحركة التجارية والانتعاش التجاري، وتعلم العرب بعض الصناعات من الفرس والرومان، وحول الفاتحون أنشطتهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهد بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة العرب في الشرق، ففيه اقتبس العرب ثقافة اليونان، ونهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة في زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩ م)، وأعطته القسطنطينية الجزية، وأرسل له إمبراطور الغرب (شارلمان) وفدًا، ولم يقل عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً[٢].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الإسلامية:

١. التبادل التجاري، وازدهار التجارة بعد اتساع رقعة الخلافة الإسلامية.
٢. التزام الدول المفتوحة التي لم تعتنق الإسلام بدفع الجزية.
٣. قوة الدولة الإسلامية، وخشية الدول القريبة منها بطشها ودفعها الجزية طواعية.

---

(١) فضل الله: **القيادة الإدارية في الإسلام**، (ص١٢-١٤).

(٢) لوبون،: **حضارة العرب**، (ص١٤٣).

٤. إسهام التجار المسلمين بحسن أخلاقهم وتعاملهم في توسيع النشاط التجاري وزيادة القوة الاقتصادية للخلافة الإسلامية.

٥. التبادل التجاري الواسع مع الدول المجاورة بوساطة الأسطول البحري القوي.

٦. تأسيس شبكة من الطرق البرية والبحرية لنقل البضائع داخل الإمبراطورية الإسلامية وخارجها.

ج. العوامل الاجتماعية

كان للعوامل الاجتماعية تأثير واضح في ازدهار الحضارة الإسلامية، وقد ظهر الإسلام فساوى بين حقوق الأفراد والجماعات، فلا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فالناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، وهو ما دفع العبيد والفقراء لاعتناق الإسلام بسبب مبادئه السمحة، حيث إنهم وجدوا فيه من يشعرهم بآدميتهم، ويساوي فيه بينهم وبين سادتهم في الحقوق والواجبات، فهذه المساواة وضعت أساس عتق العبيد، وشجع الإسلام عليه وذكر القرآن فضله في آيات عدة.

وقد تكون المجتمع الإسلامي -في بدايته- من طبقتين هما[1]:

١. طبقة الأحرار التي مثلت أفراد المجتمع الإسلامي جميعهم، سواء أكانوا أمراء أم قادة أم خلفاء، فهي طبقة واحدة تتمتع بالحرية ولا تتقيد بالرق.

٢. طبقة العبيد، حيث جاء الإسلام والرق شائع في أمم الأرض كلها، لا فرق عندهم بين أن يؤخذ الرقيق في حرب مشروعة، أو عدوان ظالم، أو احتيال على أخذ الحر غدرًا وخيانة وأكل ثمنه. وقد ضيق الإسلام هذا الباب، وشدد في حرمة بيع الحر واسترقاقه، وحصر دائرة الرق في ما أخذ من طريق الجهاد المشروع، ثم سعى لتحرير الأرقاء، ورغب في ذلك ترغيبًا ظاهرًا

---

(١) مرسي: **مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية**، (ص٩٨-١٠٠).

بفتحه وتكثيره لمجالات العتق، مثل كفارات اليمين والظهار والقتل، مع حثه وتأكيده على الإحسان إلى الرقيق وتعليمهم وتأديبهم وإكرامهم وإعانتهم. وبعد ذلك كله فإن ما ملك من الرقيق ملكًا شرعيًّا صحيحًا جاز بيعه وهبته وتأجيره. والأنثى من الرقيق يجوز لسيدها الاستمتاع بها ما لم تكن متزوجة، أو محرمة عليه بنسب أو سبب، لقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٤-٦].

وقد تميز المجتمع الإسلامي بوضع قواعد تقلل من قدر الرق وتتيح الكثير من الفرص لتحرير العبيد. أما في ما يتعلق بالتعامل مع أهل الأمصار التي فتحت، فقد تميز الإسلام بالطابع الإنساني ومراعاة إنسانية[١] الشعوب في البلدان المفتوحة وآدميتها، فكانوا لا يقاتلون المدنيين، ولا يقتلوا طفلًا ولا امرأةً ولا شيخًا ولا قسًّا في صومعته، وكانوا قبل أن يفتحوا أي بلد يرسلون رسلًا حاملين شروطًا للوفاق: إما أن يدخلوا في الإسلام وهو ما يستتبع الإخوة في الدين، أو يدفعوا الجزية كل عام مقابل الدفاع عنهم لمن يتعرض لهم، فإن رفضوا الإسلام ورفضوا دفع الجزية، فلا سبيل إلا السيف[٢].

ولذلك يعد الإسلام الحياة من أهم الحقوق الإنسانية التي كفلتها الشريعة لغير المشاركين في الحروب أثناء النزاعات المسلحة؛ لأن دم الإنسان حرام لا يجوز سفكه، وحياته مصونة لا يجوز الاعتداء عليها، بل إن المعتدي على حياة إنسان يعد معتديًا

---

(١) تغاضب الصحابيان أبو ذر (وهو عربي من غفار) مع بلال الحبشي، وتطور النزاع بينهما فاحتدّ أبو ذر وقال لبلال: يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي ﷺ، فقال لأبي ذر: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية». انظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء ـ السيرة النبوية**، (ج٢-ص٢٨٢).

(٢) لوبون: **حضارة العرب**، (ص١٣٤).

على الإنسانية جمعاء[١]، فالفرد ممثلًا للإنسانية، يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومن أساليب الشريعة الإسلامية الأخرى في تحريم القتل بيان العقوبة في الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وبيان العقوبة في الآخرة، حيث ورد في القرآن الكريم ثلاث عقوبات لقتل المسلم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وهذا يوضح خطورة قتل النفس البريئة وعاقبتها في الدنيا والآخرة، وما يترتب عليها من عقوبات للقاتل تتضمن الخلد في جهنم والتعرض لغضب الله واللعنة من الله، فضلًا عن العذاب العظيم[٢].

كما بينت السنة النبوية تحريم قتل المدنيين غير المشاركين في الحروب، ووضحت القتل في ثلاث حالات فقط، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق الجماعة**»[٣].

---

(١) شاهين، سيف الدين حسين: **حقوق الإنسان في الإسلام**، مطبعة سفير، الرياض، ١٩٩٣م، (ص٩١).

(٢) ياسين، حكمت بشير: **عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان**، جائزة نايف بن عبدالعزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، المدينة المنورة، ٢٠٠٥م، (ص٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، حديث رقم ١٦٧٦، (ج٣-ص١٣٠٢).

وفي حديث آخر له ﷺ يقول: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تَمثلُوا، ولا تَقتلُوا وليدًا**»[١]. واستنبط أبو بكر الصديق رضي الله عنه من هذه الأحاديث ما وجه به أسامة بن زيد رضي الله عنهما يوم جهز الجيش استجابة لوصية رسول الله ﷺ فقال: «**لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له**»[٢].

وقد اتفقت المذاهب الفقهية الحنفية[٣]، والمالكية[٤]، والشافعية[٥]، والحنابلة[٦]، على تحريم قتل المدنيين الذين لا يشاركون في القتال وليس من شأنهم القتال بناء على ما ورد من نصوص شرعية تمنع من قتلهم.

أي إن الشريعة الإسلامية تعد المحافظة على الحياة من أهم حقوق المدنيين، ولذلك تسعى لحمايتهم وتمنع قتلهم وإزهاق أرواحهم، فالشريعة تسعى لتجنيبهم ويلات الحروب وما يترتب عليها من آثار، فإفناء الناس وتدمير حياتهم ليست من مقاصد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم ١٧٣١، (ج١-ص٢٣٧).

(٢) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٣م (ج٤-ص٦٩٥)؛ الطنطاوي: **أبو بكر الصديق**، (ص٢٣٠) وما بعدها.

(٣) ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم: **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، دارة المعرفة، بيروت، ط٢، د.ت، (ج٥-ص١٣٩).

(٤) الزرقاني، محمد بن عبدالباقي: **شرح الزرقاني**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، (ج٣-ص١٦).

(٥) الشافعي، محمد بن إدريس: **الأم**، تحقيق زهري النجار، دار المعرفة، بيروت، د.ت، (ج١-ص٢٦١).

(٦) ابن قدامه، عبدالله بن أحمد بن محمد: **الكافي في مذهب الإمام أحمد**، دار المكتب الإسلامي، بيروت، ط٥، ١٩٨٨م، (ج٤-ص٢٦٧).

الشريعة الإسلامية[١]، ولذلك فقد أخرج البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها؟ فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**»، فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: «يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا»، فقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[٢].

يتضح مما سبق أن الشريعة الإسلامية سعت لحماية المجتمعات وإنقاذها من الظلم والجهل، بل إعلاء شأنها، فإن تلزمهم بواجبات فهي توفر لهم حقوقًا، وإن تلزمهم بالجزية إن لم يسلموا توفر لهم حق الحماية والأمان ضد أي اعتداء، ولذلك تحرم قتل المدنيين وتنظر إليهم بعين الرأفة والرحمة، بل تسعى لحمايتهم وتجنيبهم ويلات الحروب، وتعد حق الحياة من أهم حقوق المدنيين طالما لم يشاركوا في القتال، وهذا يعني أن الشريعة الإسلامية ترفض الممارسات كلها التي تعرض حياة المدنيين للخطر أو تعرضهم للهلاك.

كما أن الحضارة الإسلامية اهتمت بحقوق المجتمعات في الدول المفتوحة، فأنقذت المصريين من ظلم الرومان واضطهادهم، وأنقذت الفرس من جبروت كسرى، وسعت لإنقاذ الشعوب المقهورة من تجبر الحكام المستبدين، إضافة إلى طابعها الحضاري الذي أثر في المجتمعات، ونقلها نقلة نوعية متميزة، فالتأثير الإسلامي لا يضاهى؛

---

(١) البزايعه، خالد رمزي: **جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي**، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧م، (ص١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم ٤٢١٠، (ج٤-ص١٥٧٣).

فمثلًا، يكشف التاريخ أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، استطاعوا أن يقيموا دولًا عظيمة، ولكن لم يستطيعوا أن يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا -بمشقة- من حضارة الأمم التي قهروها، بخلاف الحضارة الإسلامية التي أنشأها العرب، حيث أسسوا حضارة جديدة تختلف كل الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، ولذلك اجتذبوا إلى دينهم ولغتهم الكثير من الأمم والشعوب القديمة؛ مثل شعوب مصر والهند التي اعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفن عمارتهم، وبالرغم من استقلال دول كثيرة عن الدولة الإسلامية، إلا أن شواهد الحضارة الإسلامية لا تزال راسخة في غالبية هذه الدول، سواء في البقاع الآسيوية أو الإفريقية التي تمتد من مراكش إلى الهند، والإسبان وحدهم هم الذين تمكنوا من الخلاص من الحضارة الإسلامية، ولكن لم يصنعوا هذا إلا ليقعوا في الانحطاط العضال[١].

أثبت التاريخ أن كثيرًا من البلاد الإسلامية التي نعرفها اليوم لم يدخلها جيش مسلم، ولكنها دخلت في الإسلام بتأثير التجار وغيرهم من الناس الذين لم يكونوا علماء ولا دعاة محترفين، وإنما أحبهم الناس لما رأوا فيهم من صدق الإيمان، وحسن الخلق، وحب الخير للناس، فكانوا أسوة حسنة، فأحب الناس دينهم بحبهم، ودخلوا فيه أفرادًا وجماعات. هكذا دخل الإسلام في ماليزيا وأندونيسيا والفلبين وغيرها: بوساطة تجار حضرموت وأمثالهم ممن جاؤوا من جنوب اليمن، ضاربين في الأرض، مبتغين من فضل الله. وهناك بلاد كثيرة في إفريقية انتشر فيها الإسلام عن طريق الطرق الصوفية، وعن طريق الاحتكاك بالمسلمين، والتأثر بسلوكياتهم وآدابهم وأفكارهم[٢].

---

(١) لوبون: **حضارة العرب**، (ص١٣٥-١٣٦).

(٢) القرضاوي، يوسف، **فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفة في ضوء القرآن والسنة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٠م، ط٣، (مج١-ص٥٠٠).

ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية، وأخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحًا لقاء حمايتهم والدفاع عنهم، رأى قادتنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة، أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين.

وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى، وجمع خالد أهل حمص وأبو عبيدة أهل دمشق، وغيرهما من القادة جمعوا أهل المدن الأخرى، وقالوا لهم: «إنا كنا قد أخذنا منكم أموالًا على أن نحميكم وندافع عنكم، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم»، فقال أهل المدن: «ردكم الله ونصركم، والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم. والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئًا أخذوه، بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله»[١].

هكذا كان المسلمون لا يطغون وإنما يحاربون الطغيان. كانت معركتهم تحرير الإنسان ورد كرامته، فهو مخلوق لله وخليفته في عمارة الأرض وإدارتها، ولم يكن هدفهم إصدار الأوامر والنواهي.

والنظام الاجتماعي في الإسلام يسعى للحفاظ على الطبقة الاجتماعية الوسطى، فلا ينبغي أن يعيش الناس في مستوى يصل إلى درجة الترف، ولا يهبط إلى درجة الفقر. ويجب أن تنظر الدولة في أمر الفقير وأن تعطيه ما يسد حاجته ويكفيه سؤال الناس، فقد استفاد المسلمون من الفتوحات الإسلامية ونظام الجزية في تزويد بيت مال المسلمين بالأموال اللازمة لبناء الدولة الإسلامية، وتعزيز قدراتها وبناء جيوشها، ودعم أنظمتها الإدارية اللازمة للتوسع وإنشاء حضارة عالمية. ولم يقتصر حق توفير الرعاية للمجتمع على المجتمعات الإسلامية التي حاربت وحققت الانتصارات وقدمت التضحيات والشهداء، ولكن حين استولى المسلمون على قسم كبير من الأراضي التي

---

(١) السباعي: **من روائع حضارتنا**، (ص١٤٠).

كانت خاضعة لحكم الفرس والرومان رفض عمر بن الخطاب ﷺ توزيع الأراضي على الفاتحين كما كان معمول به من قبل، بل أمر أن يأخذ الفاتحون حصتهم من الغنائم، أما الأراضي المفتوحة عنوة فتبقى ملكًا للمسلمين ويؤخذ دخلها ويوزع على الأمن، وذلك لضمان توافر حقوق للأجيال الإسلامية في المستقبل[١].

كما أن بيت مال المسلمين لم يهب الأموال لفقراء المسلمين وأطفالهم فحسب، بل وهبها لكبار السن والفقراء من اليهود والنصارى، وبذلك يكون عمر بن الخطاب ﷺ أول من وضع نظام التأمينات الاجتماعية، فقد كان يتفقد الناس في سوق المدينة المنورة، فرأى رجلًا عجوزًا يتسول فسأله عمر: «ما أنت يا شيخ؟)، قال العجوز: «أنا يهودي عجوز كما ترى، أسأل الناس الصدقة لأفي الجزية ولأنفق على عيالي»، فقال عمر: «ما أنصفناك يا شيخ، أخذنا منك الجزية شابًّا، ثم ضيعناك شيخًا»، وأرسل إلى خازن بيت المال، وقال له: «افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله»، وهذا يوضح أن العوامل الاجتماعية التي حرص الإسلام على إيجادها في البيئة المسلمة إضافة إلى التواد والتراحم، أيضًا تضمنت الرفق بالكبير والضعيف بغض النظر عن ديانته، وهو ما جعل العوامل الاجتماعية تسهم في بناء الحضارة الإسلامية[٢].

كما حرص الإسلام على اجتثاث نوازع الجريمة من المجتمع الإسلامي عن طريق التكافل الاجتماعي الفعلي، وذلك عن طريق:

الزكاة

الزكاة حق للفقير في مال الغني، ومقدارها (٢,٥ %) على رأس المال والربح، وهي وسيلة لتحسين أوضاع الفقراء ورواج الأسواق، فضلًا عن تقليص معدلات جرائم الاعتداء على المال، ولا تقتصر الزكاة على النقود فقط، بل تشمل الحيوانات والمحصول

---

(١) العش، يوسف: **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان**، دار الفكر، دمشق، ط١٨، ٢٠٠٩م، (ص٢٤-٢٧).

(٢) شاهين: **حقوق الإنسان في الإسلام**، (ص٤٥).

والعمل التجاري[١]، ويفيد مذهب أهل السنة أنه يجزئ دفع الزكاة إلى الإمام الذي يجور في قسمها[٢].

الخراج

هي ضريبة الأرض التي فتحها المسلمون صلحًا، حيث تبقى بيد أهلها شرط أن يدفعوا لبيت المال مقدارًا من المال والحاصلات الزراعية[٣]، وتؤخذ ضريبة الخراج من أصحاب الأرض غير المسلمين، لأنه لا خراج على المسلم في خالص ملكه الذي لا حق لأحد فيه[٤].

الفيء

هو المال الذي يصيبه المسلمون من غير حرب أو قتال، ويوزع على مستحقيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

النفقات

من حقوق الإسلام في الأموال الخاصة وجوب النفقة على الأهل والأقارب.

---

(١) السامرائي، نعمات عبدالرزاق: **مادة الثقافة الإسلامية**، المديرية العامة لكلية الملك فهد الأمنية والمعاهد، الرياض، ١٩٩٥م، (ص٤٨).

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم: **قاعدة في الأموال السلطانية**، تحقيق عبدالرحمن بن عبدالله بن إبراهيم الأمير، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٢م، (ص٢٩).

(٣) السامرائي: **مادة الثقافة الإسلامية**، (ص٤٩).

(٤) ابن رجب، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد: **الاستخراج لأحكام الخراج**، تحقيق: جندي محمود شلاش الهيتي، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٩٨٩م، (ص١٨٥).

obeikan.com

الصدقات

الصدقات هي ما يتبرع به الموسرون للفقراء والمساكين، وقد جعلها الإسلام مفتوحة طول العمر، بل قد يستمر أخذها بعد وفاة المتبرع بها إن كانت مما يبقى ويستمر نفعه، وهي تبدأ من الكلمة الطيبة وشق الثمرة إلى ما هو أكبر[١].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الإسلامية:

١. العدالة الاجتماعية.
٢. تدعيم القيم الروحية والأخلاقية، سواء في الدولة الإسلامية أو مجتمعات البلاد المفتوحة.
٣. التكافل والتضامن الإسلامي، ورعاية الدولة الإسلامية للفقراء وحسن توزيع الدخل عليهم لكفايتهم الحاجة، واستغلال أموال الزكاة والصدقات والخراج والفيء والنفقات في تحسين أحوال المسلمين، فضلًا عن استغلال أراضي البلدان المفتوحة كمصدر دخل لعموم أبناء المسلمين وذلك لمراعاة حقوق الأجيال الإسلامية مستقبلًا.
٤. منح غير القادرين على العمل من كبار السن والفقراء من غير المسلمين ما يكفيهم للإنفاق على أنفسهم وذويهم من بيت مال المسلمين.
٥. الاستفادة من العبيد ولكن وفق شروط وضوابط إنسانية في المقام الأول، ما جعل العبيد في المجتمع الإسلامي يتمتعون بحقوق وامتيازات لم تمنحها لهم أي حضارة أخرى، فقد حرص الدين على إعتاقهم، ونظم التعامل معهم، ومنحهم حقوقًا، وفرض عليهم واجبات.

---

(١) السامرائي، المرجع السابق، (ص٥٠).

obeikan.com

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الإسلامية

يأتي في مقدمة هذه الشواهد الآثار الإسلامية في أنحاء العالم جميعها والتي تميزت بالمساجد العملاقة التي أبدع الصناع المهرة في زخرفتها، وكذلك القصور الفخمة ذات الطابع الإسلامي المميز بالنقوش الإسلامية والآيات وتفريغات الخشب واستخدامها بدقة متناهية في تزيين الجدران والأبواب.

وأهم الشواهد التي تشير إلى قوة الحضارة الإسلامية وازدهارها[١]:

١. القصور الإسلامية في مختلف أنحاء العالم والتي من أهمها: قصر البارنتون والحمراء[٢] وأفروديت[٣].
٢. صور الآثار التاريخية الإسلامية وتحولاتها في مختلف العصور الإسلامية.
٣. الآثار الإسلامية في الأندلس التي ما تزال شاخصة حتى الآن.
٤. القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة، وما تركاه من أحكام وشرائع صالحة لكل زمان ومكان.
٥. الصور الفوتوغرافية التي توضح صور الأبنية والآثار الفنية والمناظر وأمثلة الشعوب ومظاهر الحياة المنزلية.
٦. اللغة العربية أهم اللغات الحية التي زادها الإسلام تأثيرًا وعظمة، فأسهمت في رواج الحضارة الإسلامية ونقل شواهدها وآثارها بين المدن.

---

(١) لوبون: **حضارة العرب**، (ص٣٤-٥٤).

(٢) قصر البارنتون: قصر أثري شيده الملوك المسلمون في مقاطعة كتالونيا الإسبانية. قصر الحمراء: قصر أثري وحصن شيده الملك المسلم أبو عبدالله محمد الأول محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر في مملكة غرناطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، وهو من أهم المعالم السياحية بإسبانيا ويقع على بعد (٤٣٠) كيلومترًا جنوب العاصمة الإسبانية مدريد. انظر لوبون: **حضارة العرب**، (ص٣٥).

(٣) قصر أثري يقع في جزيرة كريت بالقرب من جزر اليونان. انظر: لوبون: **حضارة العرب**، (ص٣٥).

openkan.com

٧. صور المعاهدات الإسلامية مع أهل البلدان التي فتحها المسلمون، والتزام المسلمين العرب بما ورد في هذه الاتفاقيات.

٨. ما ورد عن تسامح العرب المسلمين مع شعوب البلدان التي فتحوها والتي خضعت لهم سواء باعتناق الإسلام أو دفع الجزية.

٩. ما دونه المستشرقون عن الفتوحات الإسلامية، بالرغم من إساءة بعضهم إلى الإسلام وسوء تفسير الإنجازات، وعدهم الإسلام دينًا انتشر بالسيف.

١٠. صور المدن الإسلامية الحديثة، مثل بغداد وما تضمنته من مظاهر العظمة والأبهة والترف، وفن العمارة الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

١١. المعارك الحربية الشهيرة التي خاضها العرب المسلمون، مثل: معركة اليرموك، ومعركة ذات السلاسل، وفتح القسطنطينية، ومعركة حطين، ومعركة عين جالوت، وغيرها من المعارك التي كان لها تأثير كبير في التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر.

وقد جاء في كتاب **محاضرات في تاريخ العلوم** تأليف الدكتور (فؤاد سزكين) ما مضمونه: إن (شبرجس) أثبت بالأدلة أن الجامعات التي نشأت فجأة في أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادي قد كانت كلها تقليدًا مطلقًا للجامعات الإسلامية[١].

سنن سقوط الحضارة الإسلامية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

كثرت في الحضارة الإسلامية الصراعات السياسية على الحكم والحروب المتواصلة، بداية من نشأة الدولة الأموية بعد صراع على الحكم ومقتل علي بن أبي طالب ﷺ ومرورًا بسقوط الدولة الأموية ونشأة الدولة العباسية، ثم سقوط الدولة

(١) الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكه، **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصر**، دار القلم، دمشق، ٢٠١٢م، ط٥، (ص٤١) وما بعدها.

العباسية على يد التتار، وما تلا ذلك من هزيمة التتار الساحقة على يد المماليك في مصر، وكذلك نشأة الدولة العثمانية وانهيارها نتيجة الصراعات والاختلافات وتمزق الخلافة الإسلامية بسبب الحروب الصليبية المتتالية، وانفصال المدن التابعة للدولة العثمانية والخلافات الداخلية التي عصفت بالخلافة الإسلامية وغيرها من العوامل التي أدت إلى تدهور الحضارة الإسلامية فلم يبق منها إلا آثار تدل على عظمتها وقوتها.

وهناك عدة عوامل أسهمت في ضعف الحضارة الإسلامية وانهيارها لعل من أهمها:

أ. العوامل السياسية

يعد من أهم هذه العوامل الصراع المستمر على الحكم الذي كان ينتهي -في الغالب- بنشأة دولة جديدة، وسقوط دولة قديمة بعد تكبد المسلمين خسائر فادحة في الأموال والمعدات والأفراد، بداية من الفتنة التي وقعت بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ، ونهاية بتعاقب الدول: الأموية، ثم العباسية، ثم العثمانية، وما ترتب على الصراعات الداخلية والثورات والاضطرابات والحروب الخارجية من مشكلات وهزائم أدت إلى الضعف والتفكك والانحلال[١].

وأهم المظاهر التي توضح تأثير العوامل السياسية في انهيار الحضارة الإسلامية[٢]:

---

(١) العش: **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان**، (ص١١٥-١٢٥).

(٢) الحسن، عيسى: **الدولة العباسية تكامل البناء الحضاري**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م، (ص٤٢٢-٤٢٥)؛ الحسن عيسى: **الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب الانهيار**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م، (ص٣٩٨-٣٩٩)؛ أبو زيدون وديع: **تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ٢٠١١م، (ص٣٣١-٣٣٨)؛ أبو زيدون وديع: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ٢٠١١م، (ص٣٢٢-٣٢٥)؛ لوبون: **حضارة العرب**، (ص١٤٣-١٤٧).

١. الصراع على السلطة والنفوذ بين الدول المتعاقبة، وإشعال الثورات لإسقاط خلافة وإقامة أخرى، حيث أُشعلت ثورة في خراسان لإسقاط الدولة الأموية وإنشاء الدولة العباسية، وتكريس عملية الانفصالات عن الخلافة العثمانية.

٢. حالات الاستقلال التي وقعت في أجزاء كثيرة من الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، فظهرت في بلاد فارس والهند شرق بغداد إمارات كثيرة، انفصلت كل منها واستقلت عن الدولة الإسلامية. كما اشترى ابن طولون استقلاله السياسي بمصر، وأقام فيها مملكة، وترك حبل إفريقية على الغارب، وحكم إسبانيا خلفاء مستقلون استقلالًا تامًّا.

٣. استمرار الخلافة الإسلامية في الانقسام في القرن الرابع الهجري، وقيام دول كثيرة مستقلة في الكثير من ولاياتها، فخسرت بغداد ما للعواصم من مزايا، وصارت القاهرة قاعدة الإسلام الحقيقية، وأصبحت إسبانيا أنضر مقر للحضارة العربية، حيث انتشرت بها الجامعات الكبيرة في طليطلة، وغرناطة، وقرطبة، والتي قصدها طلاب العلم من أوروبا النصرانية.

٤. شهد القرن الخامس الهجري الحروب الصليبية وظهور الأتراك السلجوقيين في العالم العربي، حيث جيء بهم أسرى حرب في بداية الأمر، ثم ما لبثوا أن تألف منهم حرس الخلفاء ببغداد، فابتلعوا السلطة الحقيقية شيئًا فشيئًا غير تاركين للخلفاء سوى الظاهر. كما جعل السلجوقيون مقرهم أمام القسطنطينية بعد أن ملكوا الولايات المجاورة لبغداد جميعها، واستولوا على سورية، وأحلوا تعصبهم محل تسامح العرب، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوروبا وثارت، فأعد الصليبيون حملتهم الصليبية الأولى عام (١٠٩٥م) وانقضوا على فلسطين واستولوا عليها، وأنشأ (غودفروا البويوني) مملكة القدس النصرانية الهزيلة. كما طرد العرب من جزيرة صقلية، واستولى نصارى إسبانيا على طليطلة بقيادة (الأذفونش القشتالي).

٥. أدى انتصار النصارى الأول في الشرق إلى زيادة الحماسة في أوروبا التي جهزت حملة صليبية ثانية على الإسلام عام (١١٤٧م)، كانت نتيجتها وبالًا على الصليبيين، حيث استولى سلطان مصر (صلاح الدين الأيوبي) على بلاد فلسطين وطرد منها النصارى وبقي سيد المدينة المقدسة، بالرغم من الحملة الصليبية الثالثة التي جهزتها أوروبا عام (١١٨٩م) بقيادة (فردريك باربا روس) ملك ألمانيا، و(فيليب أوغسطس) ملك فرنسا، و(ريتشارد، قلب الأسد) ملك بريطانيا.

٦. في القرن السابع الهجري جهز الأوروبيون عدة حملات صليبية على الدولة الإسلامية، ولكنها فشلت فشلًا ذريعًا، وأسر الملك (لويس) في الحملة السابعة على مصر، وافتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات في الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعًا في تنصير أميرها. وكانت الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية، حيث أدرك العالم النصراني عجزه عن قهر المسلمين.

٧. وفي أثناء الحروب الصليبية ظهر التتار، وانقضوا بقيادة جنكيز خان على آسيا، واكتسحوا بلاد الصين وفارس والهند، واستولوا على بغداد عام (١٢٥٨م)، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله، ونهبوا بغداد بعد أن قتلوا أكثر من مليون مسلم بينهم النساء والأطفال والشيوخ بعد تآمر الوزير الأول مؤيد الدين بن العلقمي الشيعي الرافضي على الخلافة العباسية؛ والذي يسر مهمة دخول الجيوش التترية إلى بغداد، وغرر بالخليفة العباسي وضلله بإقناعه بتسريح الجيش العباسي وتقليل عدده من مئة ألف إلى عشرة آلاف. وتشير الأحداث إلى ضعف شخصية المستعصم بالله وقلة خبرته وتجاربه، فقد أرسل لمفاوضة التتار بعد محاصرتهم بغداد (عاصمة الخلافة الإسلامية) رجلين، أحدهما الوزير الفاسد مؤيد الدين بن العلقمي الشيعي الرافضي، والآخر متيكا بطريرك بغداد النصراني.

٨. انحصر سلطان العرب في مصر وإسبانيا.

٩. في القرن التاسع من الهجرة قضي على دولة العرب وحضارتهم في إسبانيا التي ملكوها نحو ثمان مئة سنة، وذلك بعد أن استولى (فردناند) على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة عام (١٤٩٢م)، وأخذ يمعن في قتل العرب وتشريدهم حتى بلغ عدد القتلى والمشردين قرابة ثلاثة ملايين عربي مسلم، فخبت -إلى الأبد- شعلة حضارة العرب التي كانت تنير أوروبا منذ ثمانية قرون.

١٠. في عام (١٩١٤م) اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخلت الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا لاستعادة أملاكها من روسيا، وبعد اشتعال الحرب انهزمت ألمانيا وتركيا، وفي (١٣ نوفمبر ١٩١٨م) احتلت القوات الفرنسية أسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية، تبعها دخول القوات البريطانية في اليوم التالي، وأدى الاحتلال إلى إشعال حرب تحرير تركيا، فنشطت في أثناء هذه الحرب الحركة الوطنية التركية التي قادها مصطفى كمال أتاتورك، إضافة إلى تحركات الصهيونية العالمية الساعية لتدعيم أعداء السلطان عبدالحميد الثاني؛ وهم المتمردون الأرمن والقوميون البلقان وحركة حزب الاتحاد والترقي، حيث وقفوا إلى جانب كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية، واستطاعت جمعيات الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان عبدالحميد الثاني عن الحكم بعد الحصول على دعم من الدول الأوروبية واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف. وفي عام (١٩٢٣م) تمت معاهدة لوزان التي قضت باستقلال تركيا وتوزيع إرث الإمبراطورية العثمانية التي اتفق عليه سرًّا منذ عام (١٩١٥م) عن طريق اتفاقية سايكس-بيكو والتي أفضت إلى حقبة الاستعمار الأوروبي الحديث في الشرق الأوسط.

١١. لم تستطع حركة حزب الاتحاد والترقي التركية مقاومة الحلفاء بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الثانية، وهرب زعماؤها إلى ألمانيا وروسيا،

واستطاع الإنجليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال أتاتورك نحو زعامة الدولة العثمانية لتنفيذ مخطط لتحقيق شروط كروزون الأربعة وهي:

- إلغاء الخلافة العثمانية.
- قطع كل صلة بالإسلام.
- إخراج العثمانيين وأنصارهم من البلاد.
- اتِّخاذ دستور مدني بدلًا من دستور تركيا القديم المؤسس على الإسلام.

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في سقوط الحضارة الإسلامية:

١. الصراع على السلطة والنفوذ.
٢. الصراعات بين القادة التي أدت إلى وقوع الاضطرابات والثورات والتعرض لحروب خارجية.
٣. عدم التمكن من السيطرة على حكم أراضي الإمبراطورية الإسلامية نظرًا لتوسعها.
٤. ضعف الدولة الأموية بسبب الثورات التي قامت ضدها والتي أسقطتها حين اشتعلت في بلاد خراسان بقيادة أبو مسلم الخراساني الموالي للعباسيين.
٥. الحملات الصليبية المستمرة على الدول العربية وما كبدته للدول العربية الإسلامية من خسائر مادية وبشرية.
٦. انفصال كثير من دول الخلافة الإسلامية عن دولة الخلافة تحت دعاوى التحرر والاستقلال، بل كان بعضهم يتعاون مع أعداء الدولة الإسلامية.
٧. ضعف الخلفاء العباسيين وتخاذلهم، واتخاذهم بطانة السوء التي أسهمت في تدمير خلافتهم وسقوط بغداد.
٨. الحرب العالمية الأولى والثانية التي قضت على الدولة العثمانية ووزعت أملاكها، وأسفرت عن احتلال الدول الأوروبية العسكري الدولَ العربية عسكريًّا.

obeikan.com

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

العامل الرئيس في تدهور الحضارة الإسلامية واندثارها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله ﷻ ما جلب للأفراد والأمة تعاسةً وضنكًا في الدنيا، فقد انحرف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرون عن شرع الله ﷻ، وفرَّطت الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما ترتب عليه كثرة الاعتداءات على بعضهم بعضًا، وتعرض النفوس للهلاك والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب، ونشبت حروب وفتن بين طبقات المجتمع لأسباب اجتماعية أو اقتصادية، ونشبت العداوة والبغضاء بين أبناء المسلمين. كما انتشر الظلم والفساد، وترتب على ذلك ضعف سياسي، وحربي، واقتصادي، وعلمي، وأخلاقي، واجتماعي، وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة والقضاء على أعدائها، فاستعمرت وغزيت فكريًا، وانهارت حضارتها[١].

وقد أدت الحروب التي مرت بها الدول الإسلامية والخلافات والاضطرابات إلى تدهور القطاعات: الزراعية، والصناعية، والتجارية، وضعف الاهتمام بالجهاد وحمل السلاح، فضلًا عن قطع طرق التجارة وفرض بعض الدول التي انفصلت عن الدولة الإسلامية رسوم مرور مرتفعة على البضائع التي تمر عبر أراضيها، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار وضيق فرص الرزق والتجارة التي كانت تتعرض في أحيان كثيرة للسطو بسبب انعدام الاستقرار السياسي وفقدان الأمن، فانعكس ذلك سلبًا على مستوى الإنتاجية الزراعية، وتركزت الثروات في يد قلة من السكان، وضعفت حركة النقود، وحدث كساد اقتصادي، وضعف التبادل التجاري، وارتفعت الأسعار، إضافة إلى أن قرار الدولة الإسلامية بيع الأراضي الخراجية وجعل ثمنها في بيت المال لتوفير السيولة المالية اللازمة قد أثر سلبًا على المدى البعيد على الدخل العام[٢].

---

(١) الحسن: **الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب الانهيار**، (ص٣٩٩).

(٢) الحسن: **الدولة الأموية عوامل البناء وأسباب الانهيار**، (ص٢٤٩).

وقد لعبت العوامل الاجتماعية دورًا مؤثرًا في شيوع الأحقاد والخلافات، فمثلًا؛ ورثت الدولة الأموية بحكم نشأتها عداء من مجتمعات العراق والشيعة والخوارج وبعض أهل الحجاز، إضافة إلى سياسة التفرقة في المعاملة بين المجتمعات التي أشاعت روح البغضاء وجعلت بعض أبناء الدولة الإسلامية لا يأبه بانهيارها، بل يتعاون مع الأعداء ضدها، فقد انحاز بعض الأمويين للعرب وقدموهم على الموالي في الرزق والجاه، وعدوا الموالي فلاحين يجب ألَّا يغادروا أراضيهم، وانحاز بعضهم الآخر للموالي، ونقلوا قسمًا كبيرًا منهم إلى الشام، واستعان بهم معاوية ﷺ على الروم والجراجمة[١]، بينما انحاز العباسيون للأتراك والأرمن وعينوهم قادة للجيش والجند وتخلوا عن العرب واستبعدوهم، فنالوا حنق العرب عليهم. كما كان التكوين القبلي للجيش من عوامل عدم الاستقرار، فقد كان العرب يقاتلون تحت لواء قبائلهم، فبقي الجيش مكونًا على أساس قبلي، ما ترتب عليه في -أحيان كثيرة- المشاحنات نتيجة حصول الاحتكاكات بين القبائل وإثارة النعرات القبلية، فضلًا عن الفورة النفسية التي كانت تنتاب العرب جيلًا دون جيل[٢].

أما الدولة العثمانية التي مثلت الخلافة الإسلامية في أوج قوتها، وأعادت هيبة الدولة الإسلامية، فقد بدأ الضعف يدب فيها لأسباب عدة، من أهمها[٣]:

١. زواج السلاطين بالأجنبيات، وتسلط هؤلاء الأجنبيات على عواطفهم وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية، وتحكمهن بمقدرات الدولة، فكم

---

(١) الجراجمة: مجموعة سكانية موطنهم الأصلي المناطق المحيطة بجبال الأمانوس، ظهروا في التاريخ شعبًا قاوم الأمويين في مناطق الثغور، وهم ينتمون لمدينة جرجم بقيليقيا. انظر: الحموي: **معجم البلدان**، (مج٢-ص١٢٠).

(٢) العش: **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان**، (ص٣٥٠-٣٥١).

(٣) المحامي، محمد فريد بك: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، دارة النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١١، ٢٠٠٩م، (ص٧٣٠-٧٣٣).

مـن الملـوك العثمانيين قتلوا أولادهم أو إخوانهم بدسائـس زوجاتهم وارتكبوا أعمالًا تضر بمصلحة البلاد إرضاءً لزوجاتهم.

٢. تفكك روابط الأسـرة السـلطانية بسـبب كثرة النسـاء حتى أصبحت عادة قتل السلطان إخوانه أو أولاده يوم يتولى العرش أمرًا معروفًا ومألوفًا.

٣. تدخل نسـاء القصر في السياسـة وشـفاعتهن لدى أزواجهن السـلاطين برفع الخدم إلى المناصب العليا؛ كرئاسة الوزارة أو قيادة الجيش.

٤. المؤامرات التي كانت تحاك من نسـاء السـلطان ضد ولي العهد للتخلص منه وكي تصبح ولاية العهد لمن يرغبنه أو لأحد أبنائهن من السلطان.

٥. احتجـاب السـلاطين وعدم ممارسـتهم السـلطة الفعلية والاعتمـاد على وزراء جهال.

٦. تبذيـر الملـوك في الإنفاق علـى القصور الملكية التي اسـتهلكت -أحيانًا- ثلث واردات الدولة.

٧. خيانـة الوزراء، فقد كان كثير منهم مسـيحيون يتظاهرون بالإسـلام ويسـعون لخدمـة السـلطان للوصـول إلـى أعلـى المراتـب، ومـن ثـم يكيـدون للإسـلام والمسـلمين ويعبثون بمقدرات الدولة الإسـلامية، ويتفننون في إرهاق الشـعب وتجويعه.

٨. غرق سلاطين الدولة العثمانية في الترف والملذات.

٩. إدخال الدين في كل كبيرة وصغيرة، ومع ذلك العمل بخلاف ما يأمر به الدين.

١٠. الغـرور الـذي أصـاب سـلاطين الدولـة العثمانيـة، ونبـرة التعالـي التـي كانوا يتحدثون بها مع الدول والممالك المجاورة.

وقد اتسـمت الحضارة الإسـلامية بالطابع الديني الروحي الأخلاقي الذي اكتسبته مـن الإسـلام، ولذلـك فـإن ضعـف هـذا الجانـب ترتب عليـه انهيـار الحضـارة، حيث إن الفتور الذي أصاب المسـلمين نتيجة الجهل والأخذ بالعلم الناقص وفسـاد أخلاق العامة

والأمـراء بصفـة خاصـة، وانحراف بعض العلماء وانحيازهـم لجانب الأمـراء طمعًا في الدنيا وشهواتها أدى إلى عدم استقامة الأمور نتيجة الخور والضعف والجبن والهلع الذي أصاب المسلمين في ضوء الحرص على الدنيا ومغانمها، فضلًا عما أصاب المسلمين من يأس وقنوط من رحمة الله، فمنهم من استقر في قلبه أن الإفرنج هم الأفضل في الأحوال كلها ولا سـبيل لمغالبتهم[١]، فالرضا بالحياة الدنيا والارتياح للأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحيـاة، واللامبالاة بالفساد والانحراف من أهم الأسباب التي أدت إلى زوال الحضارة الإسلامية[٢].

كما عانت الأمة الإسـلامية -وما تزال تعاني- صدوعًا هائلة، فهي موزعة على أكثر من سبعين قومية، أو سبعين جنسية سياسية، والإسلام سواء أكان عقيدة أو شريعة ليس له رصيد، فأتباعه ينال منهم ولا ينالون، ويجار عليهم ولا يجورون، وذئاب الشرق والغرب تغيـر عليهـم فتفترسـهم في ظل تجاهل تام من أصحاب دعاوي حقوق الإنسـان، وبسـبب ابتعادهم عن تنفيذ تعليمات الدين[٣].

كمـا أن مـن أهم العوامل الاجتماعية التي أسـهمت في ضعف الحضارة الإسـلامية وزوالها[٤]:

١. عـدم تجانـس المجتمعـات بعـد اتسـاع فتوحـات الدولـة الإسـلامية، فأصبـح المجتمـع يتكـون من العرب الذين شـكلوا الطبقـة الأرسـتقراطية الحاكمة في عهـود الفتوحـات الأول، والبربر والصقالبة والمولدون والمسـتعربون واليهود،

---

(١) أرسلان: **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم**، (ص٧٥-٧٨).

(٢) الندوي، أبو الحسن: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠١٠م، (ص٢١٢).

(٣) الغزالي، محمد: **سر تأخر العرب والمسلمين**، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة، ط١١، ٢٠١٢م، (ص٧).

(٤) أبوزيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٢-٣٢٦).

ما أدى إلى الميل لتكوين مناطق عمرانية خاصة بعد توسعها؛ فنشأت رغبة كل منها في الاستقلال عن الدولة الإسلامية.

٢. افتقاد روح الترابط بين المجتمعات في الدولة الإسلامية، ما أسفر عن نمو الرغبة في الانفصال والاستقلال، وأدى ذلك إلى تمزيق وحدة الدولة الإسلامية.

٣. تغليب بعض الحكام عنصرًا على آخر عند التعامل مع المجتمعات المتعددة التي انضمت تحت لواء الدولة الإسلامية، فقد كان الأمويون يفضلون العرب ومال بعضهم إلى تفضيل الموالي واستخدامهم بكثرة، بينما كان العباسيون يفضلون الترك والأرمن واستخدموهم وقدموهم على العرب، ما أوجد المشاحنات وأثار النعرات في صدور أبناء المجتمع الإسلامي.

٤. أساليب القسوة والبطش والتنكيل التي اتبعها بعض الولاة والأمراء والخلفاء مع معارضيهم، ما أدى إلى حصول فجوة واسعة بينهم وبين عامة الناس أسهمت في إقامة الحواجز بين الحكام والرعية، وأفضت إلى السقوط المريع لبعض الخلافات الإسلامية سواء الخلافة الإسلامية الأموية، أو العباسية، أو الخلافة الإسلامية في الأندلس.

٥. استشراء الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين عناصر المجتمع، وانقسامهم وتشرذمهم إلى أحزاب تستخدم الوسائل كلها للإيقاع بالأحزاب المنافسة وتنصيب الحاكم الذي يرون أن يحقق مصالحهم، ما أدى -على المدى البعيد- إلى الاستعانة بأعداء الإسلام في مواجهة بين المسلمين والمسلمين، ففي الأندلس استعان الخلفاء والحكام المسلمين بالمسيحيين الإسبان في الشمال لنجدتهم من خصومهم المسلمين في الأندلس مقابل التنازل لهم عن بعض المصالح أو الحصون، ما جعل النصارى يتدخلون في شؤون الأندلس الإسلامية بغية استرداد ما حصل عليه المسلمون من أراضيهم، وهو ما حدث بعد مدة من الزمن.

٦. إن زيادة الدخل والثراء الذي عاشته الدولة الإسلامية من جراء خراج الأرضي الكثيرة التي فتحها المسلمون الأوائل رفع المستوى الاقتصادي لغالبية سكان الدولة الإسلامية، وأدى إلى النزعة المادية للسكان والإقبال على الدنيا وزخارفها، وقلة المواطنين المستعدين للتضحيات في سبيل وحدة البلاد أو الدفاع عنها وما يتطلبه من جهاد في سبيل الله قد يفضي إلى الشهادة.

٧. وقوع خلل في مكونات العصر الإسلامي الوسيط (عصر الدولة العثمانية) نتيجة الإخفاق في تكييف الأفكار الإسلامية مع المشكلات المعاصرة، وعدم وجود طبقة متوسطة راسخة مهمتها الحفاظ على حكومة مركزية فعالة.

٨. عدم امتلاك الحكام المسلمين الجدد الغاية الدينية للحفاظ على الكيان الإسلامي السياسي في مجتمع يضمن لعناصره كلهم عبادة الله ﷻ في حرية.

يتضح مما سبق أن الحضارة الإسلامية قد ازدهرت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وأسهم في انتشارها واستمرار آثارها حتى يومنا هذا الشريعة الإسلامية الغراء والدين الإسلامي الذي اصطبغت به هذه الحضارة التي ما تزال أعمق تأثيرًا من غيرها، وأيضًا تدهورت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية لعل من أهمها الصراع بين المسلمين أنفسهم، والبعد عن اتباع تعليمات الشريعة وأوامرها، وركونهم إلى الدنيا وزخرفها، وانتشار الظلم والبطش بالمخالفين، والنزعة الفردية في الحكم وإهمال الشورى والمشاركة، وغيرها من العوامل التي أدت إلى ضعف الحضارة الإسلامية وزوالها بعد أن تداعت الأمم على المسلمين وسلبتهم أملاكهم لأنه نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية)

نشأت الحضارة الغربية الأوروبية والأمريكية على أنقاض حضارة روما القديمة عن طريق العمل على إحيائها والاستفادة من تجاربها في الميادين كافة، وسعت هذه الحضارة إلى الانتقام من الدول العربية والإسلامية باعتبارها العامل الأكبر الذي أدى إلى انهيار الحضارة الرومانية وسقوطها والاستيلاء على مستعمراتها ومناطق نفوذها،

لذلك سارعت الدول الأوروبية في إرسال الحملات الصليبية التي باءت بالفشل وأيقنت عدم جدواها في القضاء على الحضارة الإسلامية.

وفي الوقت الذي نشأت فيه الحضارة الإسلامية وانتشرت وسيطرت على العالم، كانت أوروبا وبقية أجزاء العالم ما تزال غارقة في الظلام، نتيجة انتشار الجهل، والإيمان بالخرافات في تفسير الظواهر حسب معتقدات دينية بدائية، مصدرها أن هناك أرواح شريرة وقوى خفية تسيطر على الإنسان، وتأمره بفعل الشر أو إتيان الفعل الإجرامي، فقد اعتقدوا أن الكون كله تحكمه وتسيطر عليه قوى شريرة تهدف إلى إيقاع الأذى والضرر بالإنسان، ولذلك تأمره بفعل الشر وارتكاب السلوكيات الإجرامية[١]، ساد هذا الاعتقاد في أوروبا قبيل عصر النهضة إبان سيطرة الكنيسة على مجريات السياسة والحياة، فالجريمة كانت انتهاكًا للقانون الكنسي قبل أن تكون انتهاكًا للقانون الإنساني، فقد كان السلوك الإجرامي يفسر على أنه فساد الغريزة الإنسانية، أو عدم الانصياع للتعاليم الكنسية، أو مس من الجن والشيطان، أو خلل خلقي وأخلاقي لدى الأفراد[٢]، وكان على المجرم أو المتهم أن يدفع ثمن الجريمة التي اقترفها في الدنيا قبل الآخرة؛ أي يدفع للإقطاع والكنيسة كليهما، بل كان عليه أن يدفع ثمن عدم انصياعه للتعاليم الكنسية في الدنيا؛ أي إن العقاب كان مضاعفًا ومزدوجًا عقابًا دينيًّا ودنيويًّا، هدفه الأساسي فرض العقوبة الجسدية ودفع ثمن الخطيئة والجريمة معًا إلى الكنيسة والإقطاع كليهما[٣].

ولم تبدأ بوادر الحضارة في الظهور إلا بناء على كتابات فلاسفة ومصلحي القرن السابع عشر والثامن عشر (عصر التنوير) وأفكارهم، ومن هؤلاء نذكر

---

(١) طالب، أحسن مبارك: **الجريمة والعقوبة والمؤسسات الإصلاحية**، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢م، (ص٣٩).

(٢) الدوري، عدنان: **أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي**، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٤م، (ص٧).

(٣) المصدر نفسه، (ص٤٢).

(مونتيسكو Montesquieu) و(روسو Rousseau) و(فلتير Voltaire) و(بكاريا C. Bacaria)، حيث نادى هؤلاء الكتاب والمصلحون بضمان حرية الإنسان ومساواته أمام القانون، وضرورة وجود نصوص قانونية صريحة تحدد العقوبات وتحدد الفعل الجرمي، مع أهمية الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية[١].

انبثق عن الجهود والتوجهات الفكرية السابقة بعض الجهود الدولية التي ظهرت في نهاية هذه المرحلة، تمثلت في بعض الاتفاقيات الدولية والمؤتمرات التي كانت بداية غرس الحضارة الأوروبية والأمريكية عن طريق:

١. مؤتمر فيينا عام (١٨١٥م) الذي اتخذ بعض الترتيبات، من أهمها إدانة تجارة الرقيق الأبيض.
٢. مؤتمر برلين عام (١٨٨٤م) الذي اتخذ عددًا من التوصيات بشأن حرية التجارة وحظر تجارة الرقيق.
٣. مؤتمر لاهاي الأول عام (١٨٩٩م) وعام (١٩٠٩م) الذي اتخذ عددًا من التوصيات لحماية مركز الفرد وحقوقه الدولية.
٤. معاهدة صلح فرساي لعام (١٩١٩م) التي تناولت عددًا من القضايا والشؤون السياسية والقانونية والاقتصادية، وخصصت الجزء العاشر منها لحماية وضع الفرد في المجتمع الدولي.
٥. الاتفاقية الألمانية البولندية عام (١٩٢٢م) بشأن حقوق الإنسان.
٦. إنشاء منظمة العمل الدولية عام (١٩١٩م) لتحسين أحوال المعيشة وظروف العمل، والقضاء على الظلم والضيق والحرمان[٢].

---

(١) إبراهيم، أكرم نشأت: **السياسة الجنائية: دراسة مقارنة**، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٩٦م، (ص٣٨-٣٩).

(٢) عرفة، محمد السيد: **الإرهاب وحقوق الإنسان**، ندوة آليات تطبيق قواعد حقوق الإنسان في ظل الأوضاع الأمنية المنعقدة بمدينة الرياض في المدة من ١٤٣٠/١١/٢-١٤٣٠/١٠/٣٠هـ الموافق ١٩-٢٠٠٩/١٠/٢١م، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠١٠م، (ص٢١٤).

obeikan.com

ويعد ميثاق الأمم المتحدة الموقع عليه في سان فرانسيسكو عام (١٩٤٥م) البداية الحقيقية للحضارة الغربية عن طريق تحديد حقوق الإنسان ذات المصدر الدولي، حيث سعى إلى الارتقاء بالفرد كإنسان، وتحقيق حماية فعالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وأكد واضعو الميثاق في ديباجته أن الدول الأعضاء في الأمم المتحدة قرروا إنقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب، وتأكيد الحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره والحقوق المتساوية للأمم والشعوب والرجال والنساء والأطفال[١].

وفي العاشر من ديسمبر عام (١٩٤٨م) وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أضفى الطابع الحضاري العالمي على حقوق الإنسان، واعتبرت الدول الأعضاء ما أعلن هدفًا يجب تحقيقه، واتجهت الأمم المتحدة إلى تحويل المبادئ التي جاءت في الإعلان إلى اتفاقيات، حيث تناولت الاتفاقية الأولى الحقوق السياسية والمدنية، بينما تناولت الاتفاقية الثانية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[٢].

لقد ارتكز الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أن الاعتراف بالكرامة المتأصلة في أعضاء الأسرة البشرية جميعهم وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم، وأن الحماية القانونية لحقوق الإنسان هي وسيلة منع التمرد على الاستبداد والظلم وما يترتب على ذلك من صراع قد يضر بالأبرياء[٣].

وبظهور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لم تعد الدولة هي الكيان الوحيد الذي يحق له أن يطالب بحماية الأفراد، بل أضحى هذا الحق مخولًا للمنظمات الدولية

---

(١) عرفة: **الإرهاب وحقوق الإنسان**، (ص٢١٥).

(٢) الحويقل، معجب بن معدي: **حقوق الإنسان والإجراءات الأمنية**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٦م، (ص١٦).

(٣) بشير، الشافعي محمد: **قانون حقوق الإنسان: مصادره وتطبيقاته الوطنية والدولية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٩م، (ص٣٥٥).

والإقليمية، بعد أن كانت الدولة ذات السيادة سياجًا حديديًّا، ما جعل السيادة بمفهومها القديم لا تتماشى مع مبادئ مصلحة المجتمع الدولي، ولا مع مركز الفرد على أنه شخص من أشخاص القانون الدولي، وأصبح الفرد يحتل المكانة الأولى في الحماية الدولية، وتولت الأمم المتحدة حمايته، ومنحته فرصة الوصول مباشرةً وبشروط معينة إلى المحاكم الدولية للدفاع عن حقوقه وحمايتها من أي انتهاك[١].

وتتبلور المرتكزات الأساسية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان حول:

- الحرية: فالناس يولدون أحرارًا، ولهم حق العمل في ما لا يضر بالآخرين، مع إمكانية الاستمتاع بكل شيء لا تمنعه القوانين.
- المساواة: فالناس يولدون أحرارًا ومتساوون في الحقوق، فلا رق، ولا عبودية، ولا امتيازات، والقانون واحد للجميع.
- مبادئ القانون الجزائي: إذ لا يجوز اتهام إنسان أو توقيفه أو سجنه إلا في حالات ينص عليها القانون، فإن الأصل البراءة التي لا تزول إلا بإدانة أو دليل قاطع[٢].

إن التحولات والتبدلات الفكرية كانت الأساس للتغلب على مشكلات الإنسان المعاصر، وترسيخ الحضارة الأوروبية والأمريكية التي اعتمدت على البحث العلمي والتقدم الصناعي المتواصل في المجالات كافة وسيلة لتحقيق أسباب القوة.

---

(١) عرفة: المصدر السابق، (ص٢١٤).

(٢) الحويقل: **حقوق الإنسان والإجراءات الأمنية**، (ص١٨).

openkan.com

سنن قيام الحضارة الغربية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

ارتكزت الحضارة الغربية على العلم والصناعة عمادًا للتقدم والرخاء، وأسهمت الثورة الصناعية في منح الدول الأوروبية والأمريكية القوة التي تبتغيها، إلا أن هذه القوة، ونتيجة تبني اتجاهات فكرية متعارضة كالرأسمالية والاشتراكية والقومية وغيرها من التيارات الفكرية، أدت إلى تعارض الرغبات والميول، فترتب على ذلك الحربان العالميتان: الأولى، والثانية. ولكن الأخذ بأسباب العلم أدى إلى استمرار التقدم وإلى حضارة راسخة وإن كانت تنتابها بعض الإخفاقات نتيجة التشدد وخلو هذه الحضارة من النزعة الروحية الإنسانية واعتمادها -بصورة مبالغ فيها- على الرأسمالية، ما جلب مجتمعات استهلاكية وزاد الفجوة بين الطبقات، وعرض لمشكلات اقتصادية واجتماعية بين الحين والآخر.

أ. العوامل السياسية

كان للعوامل السياسة تأثير واضح في نشأة الحضارة الغربية وازدهارها، فقد اقترنت الحضارة الغربية في نشأتها وتطورها بالسياسة الاستعمارية التوسعية بعد سقوط الخلافة العثمانية وتوزيع تركتها على الدول الأوروبية، واستغلال الدول الأوروبية سيطرتها على مستعمراتها في أنحاء العالم جميعها في الحصول على احتياجاتها وما يدعم اقتصادها على حساب استغلال ثروات الدول المستعمرة، فقد سيطرت روسيا وبريطانيا وفرنسا على أكثر من نصف مساحة الكرة الأرضية وعلى أكثر من ثلث سكانها[١].

---

(١) فرغسون، نيال: **الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟**، ترجمة سعيد محمد الحسنية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١٣م، (ص٣٤٦-٣٥٠).

obeikan.com

وأهم العوامل السياسية التي أسهمت في ازدهار الحضارة الغربية والأمريكية[١]:

١. أدى تقدم الثورة الصناعية إلى تطور النزعة الاستعمارية تطورًا حادًّا، جعل من تصريف البضائع والحصول على المواد الأولية وتوظيف رؤوس الأموال قضية من القضايا الأوروبية الملحة، التي لم يجد رجال السياسة حلًا لها إلا عن طريق امتلاك المستعمرات، فكان لابد من التصادم والنزاع بين القوى المستعمرة ذاتها.

٢. أدت الحرب العالمية الأولى إلى تغير الخريطة السياسية لدول أوروبا، حيث قرر مؤتمر باريس تفكيك الإمبراطوريات الألمانية والنمساوية، وذلك بإجراء تعديلات على الحدود السياسية لدول أوروبا، فظهرت على الخريطة الأوروبية دول جديدة، مثل: المجر، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا، وأجريت تغييرات جذرية في أنظمة حكم العديد من الدول، فاعتمدت تركيا وألمانيا كلاهما النظام الجمهوري، وتحولت النمسا إلى جمهورية صغيرة، أما روسيا فكانت قد تحولت من النظام القيصري إلى النظام الشيوعي وذلك بعد ثورة (١٩١٧م) البلشفية التي قادها (فلاديمير لينين).

٣. خضوع الدول العربية للاحتلال، واستغلال ثرواتها -بصورة مباشرة- لصالح الدول الأوروبية، حيث بدأ التطبيق الفعلي لمضمون اتفاقية سايكس-بيكو سنة (١٩١٨م) والمعارك لم تنته بعد، وذلك حين قسم الجنرال اللنبي (قائد الجيوش الحليفة في الشرق) المناطق العربية إلى ثلاث مناطق: واحدة بإدارة فرنسية (الساحل)، وواحدة بإدارة عربية (الداخل)، والأخيرة بإدارة بريطانية، لكن التغطية الدولية لهذه الاتفاقية جاءت عن طريق مؤتمر الصلح في باريس سنة (١٩١٩م)، فقد طرح المؤتمر مفهومًا جديدًا للاستعمار هو

---

(١) مخول، موسى: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، (ص٢٤-٢٢)؛ مخول موسى: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أميركا**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٩م، (ص٥٥-٦٢).

الانتداب الذي اقترحه الرئيس الأمريكي (ويلسون) ورئيس وزراء جنوب أفريقيا الجنرال (سمطس)، وهو ينص على تولي دولة كبرى شؤون الدولة التي لا عهد لها بالحكم والتي خضعت مدة طويلة لإحدى الإمبراطوريات المتداعية كالدولة العثمانية؛ فتساعدها الدولة المنتدبة حتى تصبح قادرة على إدارة شؤونها بنفسها. لكن المؤتمر السوري العام رفض اتفاقية سايكس-بيكو ووعد بلفور، وأعلن قيام المملكة السورية، ونصب الأمير فيصل ملكًا عليها، فانعقد المجلس الأعلى للحلفاء في مدينة (سان ريمو) الإيطالية في أبريل عام (١٩٢٠م)، وقرر ردًّا على المؤتمر السوري تطبيق اتفاقية (سايكس-يكو) التي تقضي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزي، وتعهد مؤتمر (سان ريمو) كذلك بالعمل على تطبيق وعد بلفور، كما كانت بريطانيا مرتبطة مع الإمارات العربية الواقعة على سواحل الخليج العربي وعمان بمعاهدات حماية، كذلك فرضت بريطانيا حمايتها على مصر والسودان، وسيطرت إيطاليا على ليبيا، واحتلت فرنسا ما تبقى من المغرب العربي، وكرست سيطرتها على كل من تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا والصومال.

٤. وافق رؤساء الوفود المشاركة في مؤتمر الصلح -بالإجماع- على قيام منظمة عصبة الأمم، التي أصر عليها الرئيس الأمريكي (ويلسون) وأدخلها بندًا أساسيًّا في المعاهدات جميعها التي وقعها المنتصرون مع المهزومين، وقد كان الهدف الأول للعصبة التي اتخذت مدينة جنيف في سويسرا مقرًّا لها حل الخلافات بين الدول بالوسائل السلمية، وذلك للمساعدة على خلق جو من التفاهم والثقة بين الشعوب.

٥. بعد الحرب العالمية الثانية ظهر الاتحاد السوفيتي (سابقًا) والولايات المتحدة الأمريكية كدولتين عظمتين، واحتلالهما دور بريطانيا وفرنسا في التحكم والسيطرة على مجريات السياسة العالمية، فقد جمعت الولايات المتحدة بعد

الحرب نتيجة تسديد أوروبا لديونها ٤٥٪ من احتياطي الذهب في العالم، فأصبحت بذلك أول دائن في العالم، وتقلص نفوذ بريطانيا وسلطانها، حيث أصبحت دولة ثانوية تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية في توجيه الشؤون السياسية والاقتصادية العالمية.

٦. بالرغم من سلبيات الحرب العالمية الثانية إلا أنها رسخت مفهوم الدولة الوطنية، وسعي الدول للاستقلال، والحصول على حق تقرير مصيرها، خاصةً بعد تمكن اليابانيين من تخليص بعض المستعمرات في آسيا من قبضة الاستعمار الغربي[١].

٧. سعت الولايات المتحدة لتقليص قوة الدول الكبرى، ولذلك نادت بالحرية والقضاء على الاستعمار، وساعدت على تكوين عصبة الأمم التي ألغيت وتشكلت بدلًا منها الأمم المتحدة في (٢٤ أكتوبر ١٩٤٥م) لتشكل الهيئة الدولية المسؤولة عن الأمن والسلم الدوليين، ولحل مشكلات الدول تحت مظلتها، إلا أن هدف الولايات المتحدة لم يكن حصول الدول على استقلالها بقدر ما كان تخليص الدول المستعمرة من قبضة الدول الاستعمارية، لكي تضعف قواها وتقل مواردها، ومن ثم تبرز الولايات المتحدة كقوة إقليمية دولية تتحكم في مصائر الأمم والشعوب.

٨. في عام (١٩٩١م) سعت الولايات المتحدة لتفكيك الاتحاد السوفيتي، وأضعفت قوته كثيرًا حين استنزفت جهوده في حرب أفغانستان التي ساعدت فيها الولايات المتحدة الفصائل الأفغانية بالمال والسلاح حتى تمكنت من طرد الاتحاد السوفيتي من أفغانستان، وتعرض الاتحاد السوفيتي لمشكلات

---

(١) مرهون، عبدالجليل زيد: **العلاقات الدولية من وستفاليا إلى ثورة الإنترنت**، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥م، (ص٢).

اقتصادية نتيجة هذه الحرب في ظل فشل سياسة البروسترويكا[١] التي اتبعها الرئيس السوفيتي السابق (جورباتشوف)، ما عجل سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه، واستقلال غالبية جمهورياته وانفصالها عنه، وحققت الولايات المتحدة حلمها الذي طالما سعت إليه، فمع سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة اندفعت الإستراتيجية الأمريكية إلى تثبيت الولايات المتحدة قطبًا وحيدًا في النظام الدولي الجديد، وأخذت هذه الإستراتيجية تتشدد حتى تجاه حلفائها الأوروبيين[٢].

أما التنظيمات السياسية التي حكمت غالبية الدول الأوروبية فقد اعتمدت بصورة رئيسة على الديموقراطية، واستخدمت دول أوروبا الغربية النظام الرأسمالي الأمريكي، بينما استخدمت دول أوروبا الشرقية النظام الاشتراكي، إلا أن أهم الإيجابيات السياسية هي وعي الدول الفقيرة والمستعمرة بواقعها القومي والاجتماعي والسياسي وارتفاع أصواتها في المطالبة بحقوقها المشروعة في الاستقلال والمشاركة في اتخاذ القرارات الخاصة بتدبير شؤون السياسة العالمية[٣].

يمكن تلخيص أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الغربية والأمريكية بما يأتي:

١. تطور النزعة الاستعمارية بتطور الثورة الصناعية.

---

(١) البروسترويكا تعني إعادة البناء، وهي برنامج للإصلاحات الاقتصادية أطلقه رئيس الاتحاد السوفييتي السابق ميخائيل غورباتشوف بهدف إعادة بناء اقتصاد الاتحاد السوفيتي. صاحبت البريسترويكا سياسة غلاسنوست والتي تعني الشفافية. أدت السياستان معًا إلى انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه سنة (١٩٩١م). انظر: حسين، عدنان السيد: **حلف شمال الأطلسي إستراتيجيته في الشرق الأوسط**، معهد الإنماء العربي، مجلة الفكر الإستراتيجي العرب، ع٤٣ بيروت، ١٩٩٣م، (ص١٠١).

(٢) المصدر نفسه، (ص١٠١).

(٣) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص١٠-١١).

٢. إعادة توزيع الخارطة السياسية لأوروبا بعد الحربين العالميتين: الأولى، والثانية.

٣. خضوع دول العالم الثالث للاستعمار واستغلال ثرواتها لصالح الدول الأوروبية التي جعلتها سوقًا لمنتجاتها، والتي أسهمت بصورة غير مباشرة في نمو الحضارة الغربية والأمريكية.

٤. هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على موازين السياسة الدولية.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

اعتمد الاتحاد السوفيتي السابق ودول أوروبا الشرقية الاشتراكية نظامًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا، بينما اعتمدت الولايات المتحدة لأمريكية ودول أوروبا الغربية الرأسمالية.

وقد تميزت الثورة الصناعية بالطابع العلمي الذي أسفر عن مجموعة من الاختراعات التقنية، فأدت إلى الزيادة الكبيرة في إنتاجية الأرض والعمالة والرأسمال، حيث زادت كمية العنصرين، الثاني، والثالث، في القرن التاسع عشر، لكن التحسينات النوعية كانت هي الأهم، حيث كانت الثورة الصناعية بمثابة حملة تفتيش عن الفاعلية[١].

وقد كانت الثورة الصناعية التي حدثت في النصف الأول من القرن العشرين نتيجة مباشرة لنمو العلوم والتقنيات، ولاسيما في مجالات: الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والعلوم الطبيعية والطبية، وانعكست إيجابًا على العالم الصناعي الجديد، حيث جعلته عالمًا متحركًا في جوهره يخضع النجاح فيه لتقدم مستمر، ويخضع هو نفسه للتقدم العلمي[٢].

---

(١) فرغسون: **الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟**، (ص٣١٠).

(٢) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٣٨٣).

وقد أسفرت الثورة الصناعية عن[١]:

- تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات.
- انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالي والمشروعات الحرة.
- الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأراضي تدار رأسماليًّا، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية -على نطاق واسع- في الإنتاج.
- تشجيع العلم وتطبيقه وبثه، حيث أصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين هو المسيطر على الحياة الوسطى.
- أعادت الثورة الصناعية رسم خارطة العالم عن طريق تحفيز الدول الغربية الكبرى على فتح أصقاع أجنبية لتوفير الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب، وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكريًّا لتحصل على حريتها أو تصونها، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهميًّا والتكافل واقعًا.
- تحسين المواصلات والنقل وسرعتهما، ومن ثم إتاحة الفرصة لإنشاء تكتلات اقتصادية وصناعية ضخمة، وتيسير التحكم في مناطق أوسع من رأس المال.
- ولدت الديموقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن، وإلى التفوق السياسي نتيجة لذلك، ما ترتب عليه الانتقال الخطير للسلطة والهيمنة الرأسمالية وزيادة الفوارق بين الطبقات الاجتماعية، حيث جنت طبقة رجال الأعمال تأييد قطاع متزايد من الجماهير، وسعت للسيطرة على وسائل الإعلام لاستخدامها في دعم سلطانها وسيطرتها.

---

(١) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: روسو والثورة، ترجمة فؤاد أندراوس**، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م، (مج٢٢-ج٤٣-ص٢٩-٣٢).

- مُولت المكتبات والمدارس والجامعات بصورة غير مسبوقة، وكان الهدف تدريب الذكاء التقني، وكانت الحصيلة الجانبية توسعًا لم يسبق له مثيل في الذكاء العلماني.
- نشر الاقتصاد الجديد الاستهلاكي للسلع وأسباب الرفاهية بين نسبة السكان تفوق كثيرًا أي نظام سابق؛ لأنه لم يكن أمامه من سبيل لصيانة إنتاجيته المضطردة الارتفاع إلا بإيجاد قوة شرائية مضطردة من الشعب.
- هيمنت العائلات الصناعية على المكانة الاجتماعية المرموقة وأسقطت الأرستقراطية السابقة عن عرشها.
- رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ومكانته، وأفضت إلى التفسير الاقتصادي للتاريخ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين، حيث غرست النزعات المادية البحتة وكرستها، وهي النزعات التي تبحث عن المال ووسائل توفيره والحصول عليه بأي ثمن.
- تضافرت التطورات العلمية والمكتشفات والمخترعات في إضعاف الأمور الدينية والأخلاقية.

وأهم العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى تطور الحضارة الغربية[١]:

١. المنافسة التي برزت في أوروبا ذاتها التي كانت مجزأة سياسيًّا، وتلك التي ظهرت في كل مملكة أو جمهورية، حيث ظهرت شركات منافسة.
٢. الثورة العلمية التي ظهرت في الاختراعات الكبيرة كلها التي قدمتها أوروبا في القرن السادس عشر في ميادين الرياضيات، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء.

---

(١) فرغسون: **الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟**، (ص٤٥٧-٤٥٨).

٣. حكم القانون والحكومة التمثيلية، الأمر الذي تجسد في العالم الناطق بالإنجليزية بصورة نظام اجتماعي وسياسي مثالي يستند إلى حقوق الملكية الخاصة.

٤. الطب الحديث الذي ظهر في معظم مجالات الاكتشافات الرئيسة التي ظهرت في القرنين: التاسع عشر، والعشرين، وعلى وجه الخصوص في ميادين العناية الصحية، بما في ذلك السيطرة على الأمراض الاستوائية، وهي الاكتشافات التي ظهرت على يد الأوروبيين الغربيين والأمريكيين الشماليين.

٥. المجتمع الاستهلاكي الذي نشأ نتيجة زيادة الحاجات اللازمة لإشباع الرغبات بتوافر التقنية التي تعزز الإنتاجية، وكذلك زيادة الطلب على المزيد من السلع الأفضل والأرخص.

٦. أخلاقيات العمل، حيث يعد الغربيون أول شعب في العالم يمزج ما بين العمل الشامل والمكثف ونسب ادخار أعلى، مما يسمح بالتراكم المستمر لرأس المال.

ج. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الغربية والأمريكية

من الشواهد الدالة على ما وصلت إليه الحضارة الغربية من قوة التطور في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية جميعها، والتطورات العلمية الكبيرة في ميكنة العمل، فضلًا عن التوسع في استخدام الحاسب الآلي في المجالات جميعها، وهو ما عبر عن انتقال المجتمعات من مرحلة الصناعة إلى مرحلة المعلوماتية.

وأهم الشواهد التي تشير إلى قوة الحضارة الغربية والأمريكية وازدهارها:

١. التطور العلمي المذهل في المجالات كافة، وبصفة خاصة في العلوم الطبية والفيزيائية والكيميائية.

٢. التطور في طرق النقل والمواصلات سواء في السرعة أو القوة.

Obeikan.com

٣. النهضة غير المسبوقة في البناء والعمران وظهور ناطحات السحاب العملاقة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

٤. تطور علوم الفضاء والطيران ووصول الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق[١] إلى سطح القمر.

٥. تطور تقنيات الاتصال والمعطيات بصورة غير مسبوقة، حيث أصبحت الحروب والأحداث المهمة تنقل على الهواء مباشرةً[٢].

٦. إنتاج واقع جديد يقوم على التواصل والاتصال المباشر عن طريق الأقمار الصناعية والشبكات الفضائية والإنترنت، أي إن العالم يعيش اليوم عصر المعطيات Information وعصر المعرفة Knowledge. كما «تتمثل المتغيرات الاجتماعية والسياسية في سرعة انتقال الثقافات، وانتشار المزيد من الديموقراطية، وزيادة الدور الملموس لمنظمات حقوق الإنسان، وظهور التجمعات السياسية الدولية، وزيادة حرية انتقال العمالة الدولية عبر الحواجز»[٣].

٧. ظهور التجارة الإلكترونية والتعاقد الإلكتروني من خلال شبكات الإنترنت، كاتفاقات تتم عن طريق برنامج حاسوبي أو إلكتروني أو أي وسيلة إلكترونية أخرى، وتتضمن إنشاء عمل أو الرد على تسجيلات إلكترونية أو أداء معين بصفة جزئية أو كلية من دون الرجوع لشخص طبيعي[٤].

---

(١) ديورانت: **قصة الحضارة: روسو والثورة**، (مج٢٢-ج٤٣-ص٣٠)؛ فرغسون: **الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟**، (ص٤٥٨).

(٢) عيد، محمد فتحي: **الأساليب والوسائل التقنية التي يستخدمها الإرهابيون وطرق التصدي لها ومكافحتها**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠١م، (ص١١-١٢).

(٣) بدر، عبدالمنعم محمد: **تطوير الإعلام الأمني العربي**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ١٩٩٧م، (ص٢٠).

(٤) ممدوح، خالد: **التعاقد عبر الوكيل الإلكتروني**، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠١٢م، (ص٢).

٨. ظهور الإعلام الإلكتروني بوصفه ثمرة من ثمار التطور التقني المعاصر، وإعلامًا متميزًا فتح صفحة جديدة نوعية في تاريخ الاتصال عن طريق إتاحة الاتصال التفاعلي، وإضفاء الطابع الديموقراطي على العملية الاتصالية عن طريق توفير الفرصة لأي فرد أن يكون مرسلًا ومستقبلًا في آن معًا، وفي التعبير عن الرأي ونشر الأفكار والتوجهات على نطاق واسع[١].

٩. أما في المجال الحربي، فقد تضاعفت قوة الأسلحة التقليدية والنووية وزادت قوتها التدميرية، كما ابتكرت الولايات المتحدة طائرات مقاتلة من دون طيار، وطائرات الشبح (F18) ذات القدرات القتالية العالية، والتي تتمكن من ضرب عدة أهداف في وقت واحدة، بالإضافة إلى امتلاك الولايات المتحدة قواعد عسكرية تنطلق منها إلى أنحاء العالم جميعها لضرب أي أهداف أو لمواجهة أي اعتداءات.

١٠. ابتكار الولايات المتحدة الأسلحة غير القاتلة؛ لشل حركة الإرهابيين والقبض عليهم مثل الفلاشبول، وأسلحة ومضات الليزر، والرصاص الصوتي، والمدفع المغناطيسي، والليزر الشامل[٢].

فضلًا عن تنوع الإنتاج الزراعي والصناعي الأوروبي والأمريكي، وإنشاء الاتحاد الأوروبي الذي كان من أهم إنجازاته تيسير المرور عبر دول أوروبا لمواطني دول أوروبا كافة، وإصدار العملة الأوروبية الموحدة (اليورو)، وغيرها من التطورات المتسارعة التي رسخت هيمنة الحضارة الأوروبية والأمريكية على دول العالم جميعها، وجعلت

---

(١) حسن، محمد خالد يوسف: **أهمية التنسيق بين الجهات الرسمية عند تنفيذ حملات التوعية المرورية**، الندوة العلمية واقع الحملات التوعوية المرورية المنعقدة خلال المدة من ١٠-١٤٢٨/١٠/١٢هـ الموافق ٢٢-٢٠٠٧/١٠/٢٤م، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٧م، (ص٨).

(٢) مؤنس محب الدين، محمد: **تحديث أجهزة مكافحة الإرهاب وتطوير أساليبها**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٦م، (ص١٥٠-١٥٢).

الولايات المتحدة وأوروبا قبلة طلاب العلم والباحثين، وكذلك قبلة المرضى الذين يحتاجون لعلاج طبي متقدم أو لعمليات جراحية خطيرة في ضوء التطور العلمي المستمر والمتواصل، الذي تميزت به الحضارة الغربية الأوروبية والأمريكية، والذي ما يزال واقعًا ملموسًا في العصر الراهن.

سنن ضعف الحضارة الغربية والأمريكية والعوامل التي تساعد على انهيارها

تعتمد الحضارة الغربية والأمريكية بصفة عامة على العامل التقني والتطور المستمر، ولذلك فهي حتى هذا التاريخ لم تضعف بل يستمر تقدمها، إلا أن ذلك التقدم محفوف بالمخاطر في ضوء وجود عوامل الضعف، سواء في المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فبالرغم مما تملكه الولايات المتحدة من تقنية وجهاز استخباراتي عالي المستوى، إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضها لهجمات إرهابية في الحادي عشر من سبتمبر عام (٢٠٠١م).

يمكن أن تسهم في ضعف الحضارة الغربية والأمريكية عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وانهيارها، نبينها في ما يأتي:

أ. العوامل السياسية

تعد السياسات غير المتوازنة لدول أوروبا الغربية والولايات المتحدة، والكيل بمكيالين تجاه القضايا الدولية من أخطر المشكلات التي تنذر بضعف الحضارة الغربية وزوالها، بغض النظر عما وصلت إليه هذه الحضارة من قوة.

وأهم العوامل السياسية التي تنذر بضعف الحضارة الغربية والأمريكية وارتفاع احتمالات تدهورها:

السياسات غير المتوازنة للدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية

تعد السياسات غير المتوازنة للدول الأوروبية والولايات المتحدة من أهم العوامل السياسية التي تنذر بضعف الحضارة الغربية، وذلك نتيجة تعرضها للإرهاب المحتمل في ظل غياب العدالة وانحسار دور المنظمات الدولية، وظهور النظام أحادي القطبية؛ فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالسيطرة على العالم، وعملت على بسط نفوذها وهيمنتها وفرض ما يخدم مصالحها ومصالح إسرائيل غير عابئة بالمنظمات الدولية كمجلس الأمن والأمم المتحدة[١].

كما أن الهيمنة على صناعة القرار الدولي واتخاذه وتدخل الدول الأوروبية والولايات المتحدة في الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية أحد أوجه السياسات غير المتوازنة التي تؤدي إلى انتشار الفكر المتطرف رد فعل لهذه السياسات التي لا تبالي بمصالح الدول العربية والإسلامية[٢].

عدم وجود تعريف موحد للإرهاب

تكمن مشكلة تعريف ظاهرة الإرهاب في الخلط الكبير بينه وبين الكفاح المسلح المشروع؛ لأن الإرهاب عمل غير مشروع، ولكنه يتشابه مع بعض الظواهر الأخرى المشروعة مثل الدفاع عن الوطن، وكذلك مع بعض الظواهر غير المشروعة مثل الجرائم السياسية والعنف السياسي والجريمة المنظمة، إلا أن الإشكالية تنحصر بصورة واضحة في عدم التفرقة بين الإرهاب وبين الكفاح المشروع للحصول على الاستقلال، أو حق تقرير المصير خاصةً للشعوب المحتلة التي لا تزال تئن تحت وطأة الاحتلال، مثل فلسطين المحتلة التي تناضل منظماتها لتحرير أراضيها المغتصبة.

---

(١) السحمراني، أسعد: **ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٢م، (ص٨).

(٢) قدس برس انترناشيونال: القذافي: **السياسات الغربية والتدخل في الثقافة الإسلامية سبب انتشار الإرهاب**، خدمة قدس برس، جريدة قدس برس الإلكترونية، الجزائر، ٢٠٠٥م، (ص٢).

إن الاختلافات السياسية وكذلك اختلاف المصالح والأهواء جعل من تحديد تعريف واضح للإرهاب عملية شاقة؛ نظرًا لخضوع ذلك لاعتبارات ومصالح سياسية في المقام الأول، وأهداف وغايات اقتصادية واجتماعية، وبالرغم من تهديد الإرهاب لأمن المجتمع الدولي واستقراره بأسره ولدول العالم كافة، إلا أن ذلك لم يشحذ همم الدول على وضع تعريف موحد للإرهاب؛ نظرًا لوجود تباين كبير في وجهات النظر التي تحكمها المطامع والأهواء والرغبات الاستعمارية التي ما زالت تسيطر على الدول الكبرى، ما ترتب عليه العديد من السلبيات، من أبرزها انتشار الفكر المتطرف رد فعل على السياسات غير المتوازنة للدول الكبرى[١].

من هذا المنطلق يعد الإرهابي في نظر بعضهم مناضلًا من أجل الحرية في نظر الآخرين، فمثلًا؛ يعد اليهود المنظمات الفلسطينية التي تدافع عن أراضيها وترد بعض الاعتداءات الإسرائيلية منظمات إرهابية؛ لأنها تقوم بعمليات تدمير وقتل للإسرائيليين، بينما ينظر الفلسطينيون والمنصفون إلى هذه العمليات بأنها عمليات بطولية لتحرير الوطن من الاغتصاب والاحتلال الإسرائيلي، فضلًا عن الرد على المجازر والانتهاكات التي ترتكبها إسرائيل كل يوم تحت سمع العالم أجمع وبصره، وكذلك يعد الإسرائيليون أن ما تقوم به إسرائيل من مجازر وحشية وانتهاكات لأبسط حقوق الإنسان وقتل وتشريد لأبناء الشعب الفلسطيني مجرد دفاع عن النفس، وأعمال وقائية للقضاء على الإرهاب الفلسطيني. وهذا ما عمق من إشكالية وضع تعريف واضح للإرهاب، نظرًا لتشابك المصالح السياسية والرغبات الاستعمارية وخلط الحقائق، ولكن بصفة عامة يعتمد الوصف الإرهابي على الموقف السياسي من الجهة المرتكبة للفعل الذي يدخل تحت نطاق العمل الإرهابي، وفي ذلك يقول الهواري: «يختلف الوصف الذي يطلقه رجال الإعلام على المنظمات الإرهابية باختلاف الموقف السياسي الذي يتخذونه حيال تلك

(١) العميري، محمد بن عبدالله: **موقف الإسلام من الإرهاب**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٤م، (ص٣١).

المنظمات، ومن ثم استخدمت أوصاف لغوية مختلفة لإطلاقها عليه، فهم إما إرهابيون، أو مخربون أو عصاة أو منشقون أو مجرمون، وإما جنود تحرير أو محاربون من أجل الحرية أو مناضلون، وإما أحيانًا لدى بعض الأطراف الثالثة خصوم أو معارضون للحكم أو راديكاليون». ولذلك فإن عدم وضوح مفهوم الإرهاب وتحديد وصف قاطع له من شأنه أن يعرض الولايات المتحدة ودول أوروبا لعمليات إرهابية من قبل الذين غُض الطرف عن تعرضهم للعنف، فمن بين الحطام ينشأ جيل حاقد على الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، ويرتكب عمليات انتقامية تعرض الحضارة الأوروبية والأمريكية للدمار والزوال نتيجة غياب العدالة والكيل بمكيالين مع قضايا الدول والشعوب.

وأهم المعوقات التي حالت دون الوصول لتعريف محدد للإرهاب هي:

أ. الآراء المتباينة حول شرعية المنظمات وأنشطتها.

ب. اختلاف مصالح الدول ومواقفها تجاه القضايا الدولية، وسعي كل مجموعة لفرض وجهة نظرها التي تخدم مصالحها وتوجهاتها[١].

ج. عدم وجود إجماع بين الفقهاء والمختصين والباحثين على تعريف الإرهاب، نظرًا لتباين الثقافات والأهداف، فبعضهم يعد مصطلح الإرهاب أو الإرهابي مصطلحًا غامضًا يحتاج إلى مزيد من التوضيح في ظل تعدد التعاريف التي تناولت الإرهاب التي خلطت بينه وبين الظواهر المشابهة.

د. اختلاف وجهات نظر الدول في تحديد مفهوم الإرهاب، فما يعد إرهابًا من وجهة نظر دولة، يعد عملًا مشروعًا من وجهة نظر دولة أخرى، فقد اعتبرت الولايات المتحدة ومساندیها من دول الغرب أن الإرهاب يشمل الكفاح المسلح لحركات التحرير الوطني ضمن ممارستها لحق تقرير مصيرها، بينما ترى

---

(١) الهواري، عبدالرحمن رشدي: **التعريف بالإرهاب وأشكاله: أعمال ندوة الإرهاب** والعولمة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٢م، (ص٢٠-٢١).

الدول العربية وبعض دول أوروبا الشرقية أن الإرهاب الحقيقي هو إرهاب الدولة، أي الإرهاب الذي تمارسه دولة ضد دولة أخرى[١].

هـ. غياب الموضوعية والحياد في تفسير ظاهرة الإرهاب وتحليلها، وظهور تفسيرات متباينة ترتبط -إلى حد كبير- بالجوانب والمصالح السياسية، حيث تنظر الولايات المتحدة وإسرائيل ومؤيدوهم من دول الغرب إلى الكفاح الفلسطيني لتحرير الأرض المحتلة على أنه إرهاب، بل ولم تكتف الولايات المتحدة بذلك، فوضعت منظمتي (فتح، وحماس) ضمن المنظمات الإرهابية، بينما ترى الدول العربية والإسلامية أن الكفاح الفلسطيني لتحرير أراضيه حق مشروع.

و. تداخل مفهوم الإرهاب مع عدد من المفاهيم الأخرى كالعنف السياسي والجريمة السياسية والجريمة المنظمة، بل تجاوز الأمر ذلك وامتد ليشمل تداخل مفهوم الإرهاب مع بعض صور الحرب أو حتى الجرائم العادية، أو مع بعض أشكال العنف الأخرى، مثل حركات التمرد والعصيان والانقلابات.

ز. تطور مفهوم الإرهاب، واختلاف صوره وأشكاله ودوافعه من زمن لآخر في المكان الواحد، ويتباين في الزمن الواحد من مكان لآخر.

ح. الطابع النظري لغالبية البحوث والدراسات التي تناولت ظاهرة الإرهاب، ومن ثم خلت من استخدام المنهج الكيفي في دراسة الظاهرة الإرهابية، بالرغم من أهمية هذا المنهج في الكشف عن الملامح العامة والخاصة لهذه الظاهرة[٢].

---

(١) العميري: **موقف الإسلام من الإرهاب**، (ص٣٢-٣٣).

(٢) العموش، أحمد فلاح: **أسباب انتشار ظاهرة الإرهاب**، ندوة مكافحة الإرهاب المنعقدة في المدة من ٥/٣١-٦/٢/١٩٩٩م، جامعة نايف العربية الأمنية، الرياض، ١٩٩٩م، (ص٧٠).

openkan.com

ط. تعدد البواعث والدوافع لارتكاب الجرائم الإرهابية، فغالبية الأعمال الإرهابية يقبع خلفها دوافع سياسية كمقاومة المحتل وحق تقرير المصير (وهما ليستا جرائم إرهابية)، أو رفض انتهاك حقوق الإنسان، أو جذب انتباه الرأي العام نحو قضية تهم جماعة أو فئة معينة، ويكون الدافع في الغالب الإضرار باقتصاد الدولة أو إثارة الذعر في المجتمع، أو الحاجة إلى دعم مالي لاستمرار عمل الجماعات الإرهابية. إضافة إلى أن تعدد وسائل العمل الإرهابي واختلاف صوره وأشكاله تعد من أبرز الصعوبات التي تحول دون وضع تعريف موحد للإرهاب[١].

العولمة

لا تقتصر العولمة على المجالات الفكرية أو الثقافية فحسب، بل تمتد لتشمل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والسلوكية، من دون اعتداد بالحدود السياسية للدول أو الانتماء لوطن محدد أو لإجراءات حكومية محددة، ويرى أنصار العولمة أنها وسيلة الدخول إلى العقول قبل الدخول بقوة السلاح أو بقوة التجارة، فهي وسيلة عصر انسياب المعطيات، وتوحيد الجنس البشري وإلغاء التباين، وحقوق الإنسان، وسيادة المجتمع المدني، بينما يرى المعارضون للعولمة أنها ليست طريقًا لتحقيق التجانس بين المجتمعات عن طريق انسياب المعطيات والمعارف وتماثل المؤسسات، بل هي نظام جديد للهيمنة يحفظ التباين القديم للمجتمعات لكن في إطار جديد[٢]، فالعولمة من هذا المنطلق ستؤدي إلى فوضى فكرية ينبثق عنها صعود الهويات الثقافية والعرقية والدينية التي تطفو على السطح متخذة أشكالًا من الرفض والعنف لا تستطيع

---

(١) العميري: **موقف الإسلام من الإرهاب**، (ص٣٤).

(٢) عيسى، محمد حسام: **الفكر القومي والأزمة العربية الراهنة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م، (ص٣٣).

الـدول الأوروبيـة أو الولايـات المتحدة مواجهته على المدى البعيـد[١]. كما تحمل العولمة بيـن طياتهـا نوعًـا آخر من الغـزو الفكري والثقافـي يهدف في مجمله إلـى توجيه الأفراد وضمان ولائهم للدولة ذات السيادة والقدرة الأكبر على الاتصال، وهي من هذا المنطلق تهدف إلى إيجاد المواطن العالمي الذي يعيش بجسـده في وسط اجتماعي معين، إلا أنه بفكره ومعتقده وسـلوكه وعاداته وانتمائه وولائه مواطن في بلد آخر، ما يترتب عليه ردود أفعال رافضة تتمثل في تهيئة البيئة المناسـبة لانتشـار الفكر المتطرف[٢]، ولذلك تروج الدول الأوروبية والولايات المتحدة للعولمة للأسباب السياسية الآتية:

أ. إدراك الغرب عمق أزمته العسكرية والثقافية والاقتصادية، وإحساسه بالتفكك الداخلي وعجزه عن فرض سياساته بالقوة.

ب. إدراك الغـرب صعوبـة المواجهـة مـع دول العالـم الثالث نتيجـة الصحوة التي طرأت على شعوب العالم الثالث وفهمها لقواعد اللعبة الدولية.

ج. إدراك الغـرب لعوامـل التفـكك التي بدأت تظهر في دول العالم الثالث، بسـبب ظهـور جماعـات محليـة مسـتوعبة تمامًا فـي المنظومة القيمية والاسـتهلاكية الغربية التي يمكن للغرب تجنيدها والتعاون معها لتحقيق ما فشـل في تحقيقه بالغزو العسكري[٣].

---

(١) أومليل، علي: **قضايا عربية وتحديات العولمة: العرب وتحديات القرن الحادي والعشرين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م، (ص٤٧٥).

(٢) أمين، جلال: **العولمة هي التكنولوجيا والتكنولوجيا هي الخطر: نحن والعولمة من يربي الآخر**، وزارة التربية والتعليم السعودية، ٢٠٠٠م، (ص٩٦-١٠٠).

(٣) المسيري، عبدالوهاب: **عولمة الالتفاف بدلًا من المواجهة: نحن والعولمة من يربي الآخر**، وزارة التربية والتعليم السعودية، الرياض، ٢٠٠٠م، (ص٦٩).

سيطرة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن

تتحكم الولايات المتحدة في عملية صنع القرار في الأمم المتحدة واتخاذه، ولذلك تستخدم حق (الفيتو) على أي قرار يصوَّت عليه لإدانة إسرائيل، وهذا منذ أن تبنت الولايات المتحدة الكيان الصهيوني في فلسطين من حيث تقديم وسائل الدعم اللوجستي، والمعنوي، والسياسي، والمادي، والعسكري كافة، فقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تسيطر سيطرة كاملة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن، فلا يصدر قرار إلا بموافقتها وحسب ما تهواه وتميل إليه، لذلك شكل مجلس الأمن محاكم دولية خاصة في يوغسلافيا ورواندا، إلا أنه لم يعد ما ترتكبه إسرائيل جرائم تستحق توقيع العقوبة[١].

التوسع في إنتاج أسلحة الدمار الشامل

تمكنت الولايات المتحدة من إنتاج القنبلة النووية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وقررت استخدامها بعد تعرض أسطولها لضربة قاضية من اليابان في ميناء بيرل هاربر، وهي أسلحة ذات قوة تدميرية عالية وسريعة أكبر بملايين المرات من القوة التقليدية للأسلحة التقليدية المعروفة، كما ينبعث منها إشعاعات قاتلة وحرارة عالية جدًا تقوم بإحراق كل ما تقابله وإتلافه. وتلا إنتاج القنبلة النووية إنتاج القنبلة الهيدروجينية التي تعتمد في مادتها التفجيرية على اندماج المواد الأكثر خفة كالهيدروجين وينتج من هذا الاندماج طاقة، ويلزم لهذا الاندماج درجة حرارة عالية تعادل عشرات الملايين من الدرجات المئوية، ولذلك تستخدم قنبلة ذرية لتكون المفجر اللازم لإحداث التفاعل الكيميائي المطلوب. والمعروف أن القنبلة الهيدروجينية أقوى من القنبلة الذرية[٢].

---

(١) أبو الخير، السيد مصطفى أحمد: **الحرب الأخيرة على غزة في ضوء القانون الدولي العام**، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م، (ص١٣٧).

(٢) كمال، مصطفى أحمد: **الحرب غير التقليدية _ الأسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية**، دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع، قطر، ١٩٩١م، (ص١٩-٢٠).

وتشمل المواد الكيماوية غازات الأعصاب، والغازات الكاوية والخانقة، وغازات الدم، والغازات المسيلة للدموع، والغازات المقيئة، وتتميز هذه الغازات بسهولة نقلها من مكان لآخر، وسهولة استخدامها بوساطة الرش أو (الاسبراي)، ولكنها أقل خطورة من الأسلحة النووية، إلا أنها تحدث الرعب والذعر والاضطراب عند محاولة الفرار من المنطقة المصابة بهذه المواد[١].

وقد استخدمت ألمانيا الأسلحة الكيميائية في الحرب العالمية الثانية، وأدى استخدامها إلى مقتل الآلاف من قوات الحلفاء، وكذلك ضربت الولايات المتحدة مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بالقنابل النووية في السادس والتاسع من أغسطس عام (١٩٤٥م)، وأسفرت عن قتل الآلاف وتدمير المدينتين تدميرًا كاملًا، فضلًا عن التشوهات في الأجيال اللاحقة وفقدان البصر، فقد قتلت القنابل ما يصل إلى (١٤٠,٠٠٠) شخص في هيروشيما، و(٨٠,٠٠٠) شخص في ناجازاكي بحلول نهاية عام (١٩٤٥م)، حيث مات ما يقرب من نصف هذا الرقم في اليوم نفسه الذي تمت فيه التفجيرات. ومن بين هؤلاء، مات (١٥-٢٠٪) متأثرين بالجروح أو بسبب آثار الحروق، والصدمات، والحروق الإشعاعية، إضافة إلى الأمراض، وسوء التغذية والتسمم الإشعاعي. ومنذ ذلك الحين، توفي عدد كبير بسبب سرطان الدم (٢٣١ حالة) والسرطانات الصلبة (٣٣٤ حالة)، تأتي نتيجة التعرض للإشعاعات المنبثقة من القنابل، وكانت معظم الوفيات من المدنيين في المدينتين[٢].

ويعد التوسع في إنتاج أسلحة الدمار الشامل من أكثر عوامل هدم الحضارة البشرية، حيث إن هذه الأسلحة تقتل الزرع والنسل، والتي حرصت الدول العظمى على تطويرها كوسائل دفاعية تحمي وجودها واستقرارها، فقد تكون وسائل فنائها واندثارها، إذا ارتفعت

---

(١) الهواري، عبدالرحمن رشدي: **الأسلحة الكيميائية والبيولوجية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، (ص٦١).

(٢) كمال، المصدر السابق، (ص٢٥).

درجة الحرارة أو أسهم الاحتباس الحراري نتيجة الأنشطة الصناعية في ارتفاع درجة الحرارة عن المعدلات المقبولة، لأن ذلك معناه تولد طاقة قد تؤدي إلى حدوث تسربات إشعاعية، وإذا زادت عن الحد المقبول قد تؤدي إلى انفجار القنابل النووية، وقد ذكر تعالى في سورة التكوير ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦]. أي إذا البحار جفت منها المياه بسبب الحرارة الشديدة، وهناك عدة تفسيرات لذلك من بينها أن الله جل وعلا حين يغضب على أهل الأرض يبتليهم باقتراب الشمس من الأرض، فتحرق وتهلك الزرع والنسل وتجف مياه البحار والأنهار بل وتشتعل نارًا[١]، وهذه الحرارة الشديدة تسفر عن طاقة هائلة كافية لتفجير القنابل النووية والهيدروجينية والنيتروجينية، والتي إذا انفجرت ستسفر عن اختفاء قارة أوروبا بأكملها واختفاء أمريكا الجنوبية والشمالية، والتأثير على بقية أجزاء العالم، فوسيلة التحدي والقوة والهيمنة والحفاظ على الأمن الإستراتيجي قد تنقلب لتصبح وسيلة دمار وفناء وهلاك محقق للحضارة الغربية والأمريكية.

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي قد تسهم في سقوط الحضارة الغربية والأمريكية:

١. السياسات غير المتوازنة للدول الأوروبية والولايات المتحدة.
٢. عدم وجود تعريف موحد للإرهاب، ما يزيد من تعرض دول أوروبا والولايات المتحدة للإرهاب المحتمل مستقبلًا.
٣. العولمة وما تتضمنه من وسائل استعمارية تزيد الحقد والغضب نحو دول أوروبا والولايات المتحدة.
٤. سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على مراكز صناعة القرار السياسي العالمي.
٥. سيطرة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

---

(١) الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين: **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، (ج١٦-ص٥٨).

٦. التوسع في إنتاج أسلحة الدمار الشامل.

تطور السياسة الأمريكية لتحقيق مصالحها ومصالح حلفائها بصورة دراماتيكية تحت دعاوى حقوق الإنسان

تسعى الولايات المتحدة الأمريكية بين حين وآخر لتحقيق مصالحها ومصالح حلفائها الغربيين؛ الذين يغضون الطرف عن انتهاكاتها بصورة دراماتيكية، تحت دعاوى مكافحة الإرهاب ومواجهة انتهاكات حقوق الإنسان، وهي في هذا الصدد لا تتحمل النفقات وحدها، بل تلزم الدول التي معها ضد الإرهاب بدفع الفاتورة كاملة أو جزء منها عن طريق حساب أناني للمنافع الاقتصادية، ولهذا السبب كانت الولايات المتحدة وراء إشعال ثورات الربيع العربي التي أنهكت الدول العربية، وقضت على الأمن والاستقرار فيها، وبالرغم من أنها أدت إلى سقوط عدد من الحكام الذين عرفوا ببطشهم واستبدادهم وتربعهم على السلطة لعدة عقود، إلا أن إنشاء أنظمة حكم ديموقراطية بديلة وغير خاضعة لتعليمات وأوامر ورغبات الولايات المتحدة وحلفائها من الدول الغربية أمر مشكوك في صحته، مما ينذر بأن تحريك هذه الثورات جاء بناء على رغبة لإخضاع الدول العربية لمناطق نفوذ مقسمة بين الولايات المتحدة وحلفائها، أو ما يعرف بالاتجاه نحو سايكس-بيكو جديد[١].

وقد ساعدت الظروف الولايات المتحدة على تنفيذ مخططاتها، فقد كانت الأرض العربية مهيأة للثورة بفعل أنظمة مترهلة قديمة العهد بالحكم والفساد، وبفعل بطالة أدت إلى حالة من الفقر غير مسبوقة، وتفاوت مخيف في مستويات المعيشة بين قلة تملك المليارات وغالبية ساحقة تعيش على الهامش[٢].

---

(١) عبدالقادر، نزار: **الربيع العربي والبركان السوري: نحو سايكس بيكو جديد**، مطبعة شمص، بيروت، ٢٠١٣م، (ص١٣-١٦).

(٢) حمادة، نضال: **الوجه الآخر للثورات العربية**، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٣م، (ص٥٧).

إن النظـم الديكتاتورية البالية حملت بداخلهـا جينات انهيارها وزوالها عبر عوامل هيكلية أدت في النهاية إلى حتمية وقوع الثورات؛ في ظل ممارسـات الفسـاد والممارسات الوحشية والقمع اللامتناهي من الأجهزة الأمنية والانسداد السياسي، واستئثار فئة قليلة بمـوارد الدولـة مـن خلال زواج السـلطة برأس المـال، وانتشـار الإفقار ونمـو الرغبة في توريث الحكم ومخالفة إرادة الشعب[١].

لقـد شـعرت الولايـات المتحـدة والـدول الأوروبيـة الحليفـة لهـا أن التضييـق علـى المسـلمين ووضعهم تحت مطرقة الحكم الاسـتبدادي هو وسـيلتها لضمان خضوع الدول العربيـة والإسـلامية وحكامهـا للهيمنـة الأمريكيـة، ولذلـك سـعت إلـى إيصـال الإخوان المسـلمين إلى سـدة الحكم في مصر بشـرط إحكام السـيطرة على الشعب باسم الدين، واسـتغلال الأميـة والعاطفة كعاملين مؤثرين في تحقيق ذلك، علـى أن يظلوا محصورين داخـل نطاقهـم الجغرافـي وألا يتعدوه أبدًا، ليفعلوا ما يشـاؤون ولكـن داخل بلدانهم، فلا يحـق لهـم أن يفرضـوا ذلك خـارج نطاق الـدول العربية والإسـلامية مع الالتـزام بثوابت السياسة الأمريكية وعدم الانحراف عن الخط المرسوم لدورها في المنطقة[٢].

وبعـد أن أصبحـت لعبـة دفـع الفاتـورة مكشـوفة للجميـع غيـرت الولايـات المتحدة تكتيـك اللعبـة وأصولهـا بعدما اكتشـفت الفوائد التي يمكـن أن تجنيها مـن ضرب الدول العربية والإسلامية والتدخل في شؤونها، وإشعال الثورات بها وإضعافها وتحطيم قدرتها العسـكرية؛ اسـتغلالًا لنظـم الحكـم الديكتاتورية التـي تمنح الولايات المتحـدة وحلفائها ذريعة التدخل لحماية حقوق الإنسان أو مكافحة الإرهاب أو فرض الديموقراطية أو غيرها من المسـميات، ارتكزت الإستراتيجية الأمريكية الجديدة على الجوانب الاقتصادية عن

---

(١) الرشيد، تركي فيصل: **ما بعد الثورات العربية: الربيع العربي ومخاض التحول الديموقراطي**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠١٣م، (ص٩).

(٢) صالح، هاشم: **الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ**، دار الساقي، بيروت، ٢٠١٣م، (ص١٢٣).

طريق إزاحة الأنظمة القديمة، وفرض الهيمنة الأمريكية على الأقطار الصعبة، وبيع المزيد من الأسلحة، واختبار الأسلحة الجديدة ونظم الحرب الإلكترونية المتطورة، وإيقاع الدمار بين الحين والآخر، ثم إرسال شركات المقاولات الأمريكية لتستفيد من البناء وإعادة الإعمار[١].

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

هناك العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي تتجه بالحضارة الغربية والأمريكية نحو الزوال، بداية من فقدان دول أوروبا الغربية مواردها بعد اشتعال حركات التحرر الوطني واستقلال المستعمرات عن هذه الدول، ونهاية بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية القائمة على النزعات المادية والاستهلاك المتنامي وتجاهل التضامن والتكافل، ما أدى إلى ممارسات سلبية تضمنت التفكك الاجتماعي نتيجة ضعف السلطة الأبوية، وتفكك أواصر الأسرة والاتجاه نحو الماديات، ولو كان على حساب ممارسات أخلاقية، حيث تنتشر في أوروبا والولايات المتحدة ممارسة النساء للرذيلة والبغاء مهنة لتوفير نفقات المعيشة، ففي فرنسا مثلًا ارتفع سعر عنقود العنب عن ثمن المرأة.

إن بوادر القلق الاجتماعي التي برزت في أوروبا عام (١٩١٤م)، لم يكن مصدرها النظام المستتب في القرن التاسع عشر لمصلحة أوروبا الاقتصادية، إنما كان بسبب الاضطراب الاجتماعي المتزايد يومًا بعد يوم، فمنذ عام (١٩٠٥م) بدأت الاضطرابات الكبيرة ذات الطابع الثوري تنفجر في كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بسبب ظهور النقابات العمالية التي أخذت تطالب بحقوق العمال، وتثير الإضرابات عن العمل يومًا

(١) سيمونز، جيف: **التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة**، ترجمة مركز دراسات الوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م، (ص٢٩١-٢٩٢).

بعد يوم كوسيلة ضغط لتنفيذ مطالب العمال ورفع أجورهم وتحسين مستويات معيشتهم.

إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى عمق من المشكلة على النحو الآتي[١]:

- تقطعت أوصال النمسا وألمانيا المنهزمتين في الحرب.
- واجهت دول وسط وشرق أوروبا كوارث اقتصادية واجتماعية.
- إلى جانب الخسائر البشرية والعسكرية عانت روسيا والدول المنهزمة من خسائر فادحة في الأنفس بسبب الجوع وسوء التغذية والأمراض الوبائية.
- في بولندا اضطر الفلاحون إلى الاقتيات بالحشائش وجذوع الأشجار.
- في ألمانيا كان عدد المواليد عام (١٩١٨م) أقل من عدد الوفيات؛ بسبب سوء التغذية ونقص الأطعمة.
- في النمسا خيم شبح المجاعة على العائلات الفقيرة جميعها نتيجة توقف المصانع عن العمل لعدم وجود المواد الخام.
- في سيبريا هلك نصف السكان، وأصيب أكثر من (٣٥,٠ ٪) بمرض السل نتيجة نقص التغذية بسبب الحرب.
- لم تقتصر الخسائر السابقة على الدول المنهزمة، بل شملت أيضًا الدول المنتصرة في الحرب، فكانت خسائر فرنسا هائلة في القتلى والجرحى والمرافق الاقتصادية، حيث خربت المزارع ودمرت المصانع والمناجم.
- وفي إيطاليا اشتد الجوع والعوز والفاقة بسبب قلة الوقود وتوقف وسائل النقل ولاسيما السكك الحديدية.

بالإضافة إلى أن من أهم العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي أسهمت في إضعاف الحضارة الغربية والأمريكية والإنذار بزوالها:

---

(١) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٨-٣٤).

obeikan.com

١. التحول الاجتماعي الاقتصادي الناتج عن الثورة الصناعية، فقد كانت الأسرة في النظام الزراعي هي وحدة الإنتاج الاقتصادي، كما كانت وحدة الاستمرار العرقي والنظام الاجتماعي؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذي يفرضه الوالدان والفصول (المواسم الزراعية). أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتا الإنتاج، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادي لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية، وبدأت اتجاهات جديدة في الظهور، مثل تنظيم النسل، ما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية، فتنظيم النسل أسهم في تحرير المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت، وجذبت المصانع والمكاتب الأمهات باللجوء للعمل فيها. كما أن استغراق الأبناء مدة أطول حتى يعتمدوا على ذواتهم اقتصاديًّا، صعبت من مهمة العفة قبل الزواج وحطمت الناموس الأخلاقي الذي كان سائدًا بفضل الزواج المبكر والعقوبات الدينية، فانتشرت ممارسات جنسية لا أخلاقية وفقدت المجتمعات الصناعية المسؤولية الأخلاقية[١].

٢. الخسائر الباهظة التي تكبدتها دول أوروبا المشاركة في الحرب العالمية الأولى والثانية، والتي ترتب عليها إضعاف قدراتها الاقتصادية بسبب توجيه مجهوداتها وإنتاجها للتصنيع والإنتاج الحربي، فضلًا عن ضعف التبادل التجاري بسبب قطع طرق المواصلات والاستيلاء على الأساطيل التجارية أو إغراقها، وعدم القدرة على تأمين طرق التجارة، فقد خرجت دول أوروبا من الحرب العالمية الثانية بديون بلغت (٤٥٪) من احتياطي الذهب في العالم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية[٢].

---

(١) ديورانت: **قصة الحضارة: روسو والثورة**، (مج٢٢-ج٤٣-ص٣٢-٣٣).

(٢) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٤-٣٢).

٣. وجدت الولايات المتحدة الفرصة سانحة للانفراد بزعامة العالم والتأثير في سياساته، فسعت لاستغلال نتائج الحرب في إضعاف قدرة دول أوروبا عن طريق تشجيع الدول المستعمرة من دول أوروبا على الاستقلال بهدف إضعاف القدرات الاقتصادية لدول أوروبا وإفقادها ما تجنيه من فوائد من مستعمراتها، لكي تضعف قواها وتقل مواردها، ومن ثم تبرز الولايات المتحدة قوة إقليمية دولية تتحكم في مصائر الأمم والشعوب[١].

٤. كان من نتائج الثورة الصناعية الإفراط في إنتاج مركبات الكلوروفلوروكربون واستخداماتها (مركبات تستخدم في صناعة التبريد وتنتج من اتحاد الكلور والفلور والكربون)، ما أدى إلى ثقب طبقة الأوزون، ومن ثم تعرض الأرض لتركيزات مرتفعة من الأشعة فوق البنفسجية الضارة، والتي أدت إلى حدوث خلل في جهاز مناعة الإنسان والإضرار بالعيون وارتفاع الإصابة بسرطان الجلد. أما بالنسبة إلى النباتات فقد ثبت أن التعرض لكميات الأشعة فوق البنفسجية تلحق الضرر باليخضور الذي يقوم بعملية البناء الضوئي؛ وبالتالي انخفاض القدرة الإنتاجية، ما يهدد الأمن الغذائي على سطح الكرة الأرضية[٢].

٥. عجز النظام الرأسمالي أو النظام الاشتراكي عن مواجهة الأزمات الاقتصادية، فدالة المنفعة في النظام الرأسمالي هي تحقيق أقصى قدر من العائد المادي للفرد (سواء كان ذلك في صورة أجر أو ربح أو خلافه)، بينما تهدف دالة الغاية في المجتمعات الاشتراكية إلى تحقيق الكفاية والرخاء المادي للمجتمع ككل وليس للفرد. أدت الملكية الفردية غير المقيدة ودافع التعظيم المادي ونظام الإرث إلى تفاوت هائل في الدخول والثروات كفيل بتحقيق صراع مرير

---

(١) مخول موسى: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أميركا**، (ص٥٥-٦٢).

(٢) المنظمة العالمية للأرصاد الجوية: **اتساع ثقب الأوزون وزراء انقراض الكائنات الحية**، الأمم المتحدة، جنيف، ٢٠١٣م، (ص٢).

بيـن الطبقات الغنية والفقيرة. وكان نتيجة حتمية للاعتماد على جهاز السـوق فـي إطـار المصالح الشـخصية وقـوع الدول الرأسـمالية في أزمـات حادة من أبرزهـا الكسـاد الكبيـر عـام (١٩٢٩م)، وكذلـك الأزمة الماليـة العالمية عام (٢٠٠٧م) التي أدت إلى تعطيل الملايين من هذه الدول. وأحدثت هزة عنيفة في مسـلمات الفكر الاقتصادي وفي مزايا جهاز الأسعار الحر. وكانت النتيجة اتسـاع دور الدولـة فـي النواحـي الاقتصاديـة عـن طريـق السياسـات الماليـة والنقديـة والتجاريـة والتدخـل المباشـر، إلا أن هذا التدخل لم يحل مشـكلات هـذا النظـام، بل أوجد مشـكلات جديدة أدت إلى الحد مـن النمو الاقتصادي وقتل الحافز الشخصي، حيث إن هذا التدخل كان مجرد (ترقيع) لإطار فاشل وأسس غير صحيحة.

أضف إلى ما تقدم أن النظام الرأسـمالي يركز على السـلع والخدمات الخاصة دون العامة بسبب وجود ما يعرف بالوفورات الخارجية التي يعجز جهاز الثمن عن أخذها في الحسبان. أيضًا أدى الدافع الشخصي لتحقيق أكبر ربح ممكن إلى تلوث في البيئة وعدم توافـق بيـن مصلحـة المنتج ومصلحـة المجتمع. وبدلًا مـن أن يتفوق النظام الاشـتراكي بحجة أنه قادر على رعاية مصلحة الأغلبية العاملة، ومعالجة سـوء توزيع الثروة وضمان إشـباع الحاجـات العامـة وتنظيـم الإنتـاج وتلافـي البطالـة والأزمـات الاقتصاديـة أخذ النظـام ينهار سـريعًا في الدول الاشـتراكية التـي نما فيها (الواحدة تلـو الأخرى)، حيث ضاقـت صدور الجماهير بنظام يلغي دور الفكر الإنسـاني والإحساس المتميز للإنسـان ويجعـل مصيـره كلـه خارجًا عن إرادته، حيث سـلب من الفرد أبسـط حقـوق الحياة وهو حق الملكية، وعجز النظام عن توفير السـلع الاسـتهلاكية الأساسية. واتضح بعد عشرات السنوات من تطبيق النظام الاشتراكي أنه نظام اقتصادي فاشل، أدى إلى ضعف الحوافز الشخصية والمبادرات الفردية وبواعث الرقي الاقتصادي، فضلًا عن الضغوط المختلفة

والتعقيدات الإدارية، وتحكم البيروقراطية، وضياع الحرية الشخصية التي هي جوهر الحياة الإنسانية، إضافة إلى انخفاض مستويات المعيشة[١].

يقول ألكسيس كاريل: «إننا نواجه مشكلات أعظم خطورة تحتاج إلى حل سريع، إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية... إلخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال. فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية... ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في المستشفيات الأخرى جميعها. وكالجنون، فإن الاضطرابات العصبية، وضعف القوى العقلية آخذة في الزيادة... وهي أكثر العناصر نشاطًا في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر... إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن»[٢].

ثم يقول: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت من دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة إلى حجمنا وشكلنا»[٣]. ويقول أيضًا: «يجب أن يكون الإنسان مقياسًا لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه... إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي

---

(١) محمود، محمد فتحي: **دور الاقتصاد الإسلامي في علاج المشكلات الاقتصادية التي عجزت النظم الوضعية عن علاجها**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠١٠م، (ص٨-١٢).

(٢) كاريل ألكسيس، **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف، ٢٠٠٣م، ط١، (ص٣٤).

(٣) المصدر نفسه، (ص٤١) وما بعدها.

عانت منها الإنسانية... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة إلى قوامنا ولا بالنسبة إلى هيئتنا... إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي -على وجه الدقة- الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها»[١].

ويضيف كاريل قائلًا: «إننا لن نصيب أي فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية، وقد يكون من الأجدى ألا نضفي مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا -مطلقًا- ضررًا مباشرًا، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغي على عقولنا ويستعيد أفكارنا في مملكة الجماد، فإنه يصبح خطرًا، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتمامه إلى نفسه وإلى السبب في عجزه الخلقي والعقلي، إذ ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر وأسباب تعقيد حضارتنا إذ كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بما يعود علينا بالنفع؟ حقًا إنه لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقي وتؤدي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة.

ومن ثم فإنه من الأفضل كثيرًا أن نوجه اهتمامًا أكثر إلى أنفسنا من أن نبني بواخر أكثر سرعة، وسيارة تتوفر فيها أسباب الراحة، وأجهزة راديو أقل ثمنًا أو تلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق»[٢].

وفي هذه الصورة كتب الندوي قائلًا: «والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة في الخير والصلاح، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة، وزاغت قلوبهم وانحرفت، واعتلَّت أذواقهم، لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضررًا، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل في جسم الموبوء مرضًا أو فسادًا؛ بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا

---

(١) المصدر نفسه، (ص٤١) وما بعدها.

(٢) كاريل: **الإنسان ذلك المجهول**، (ص٥٥) وما بعدها.

قوة وسرعة في الإهلاك واستعانة على الانتحار، وقد أحسن المستر إيدن (Eden) رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك في بعض خطبه سنة (١٩٣٨م): «إن أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها، ولكنها لا تنفق على ضبطها، وإني أتعجب في بعض الأحيان وأقول: كيف لزوار العالم الجديد إن جاء زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا، ونتبادل الأنباء عنها، ويخبر بعضنا بعضًا كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية»[١].

يتضح مما سبق أن الحضارة الغربية والأمريكية قد ازدهرت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وأسهم في انتشارها واستمرار آثارها حتى يومنا هذا التقدم العلمي المستمر الذي يتواصل بمعدلات متسارعة تجعل هناك حاجة ملحة لغرس النزعة الاستهلاكية بصورة أكبر لضمان تصريف المنتجات وتلافي الكساد والأزمات المالية التي تعد المؤثر الأكبر على الحضارة الغربية والأمريكية. إلا أن الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي ذاتها التي تنذر بتدهور الحضارة الغربية والأمريكية في ضوء السياسات غير المتوازنة، والتفسخ القيمي والأخلاقي الناتج عن النزعات المادية البحتة للحضارة المعاصرة، وعدم قدرتها على مواجهة الأزمات الاقتصادية نتيجة افتقادها للعامل الإنساني الروحي الذي يدعو إلى التكافل والتراحم والتعاون بين المجتمعات والشعوب.

(١) الندوي: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، (ص٢٣٥).